حكاية الرواية الأولى

حكاية الرواية الأولى

إعداد وتقديم

هيثم حسين

Qindeel | قنديل

Work Ethics

Prachical Applications Individnals&Institutions

حكاية الرواية الأولى

هيثم حسين

© 2017 Qindeel printing, publishing & distrubtion

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو، و بأي طريقة، سواء
أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير أم بالتسجيل أم خلاف ذلك،
إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة مقدماً.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

موافقة « **المجلس الوطني للإعلام**» في دولة الإمارات العربية المتحدة
رقم: 205792 تاريخ 2017/5/31

ISBN: 978 - 9948 - 419 - 38 - 9

Qindeel | قنديل

للطباعة والنشر والتوزيع

Printing, publishing & Distribution

ص. ب: 47417 شارع الشيخ زايد

دبي – دولة الإمارات العربية المتحدة

البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae

الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

© جميع الحقوق محفوظة للناشر 2017

الطبعة الأولى: آب / أغسطس 2017 م – 1438 هـ

المحتويات

هل الإنسان إلّا حكاية! 9

نكاية في النسيان (**إبراهيم الحجري**).. 15

كنتُ خيالاً موجوعاً وبطلي واقعٌ مُوجع (**إسماعيل يبرير**) 27

أردت أن أضع بصمتي على جبين هذا العالم (**بدر أحمد علي**) 33

هذا العالم حكاية بلا نهاية (**جلال برجس**).. 39

هكذا ولدت «ليل».. (**جورج يرَق**) 43

«سمراويت».. والبحث عن الهوية الضائعة (**حجّي جابر**) 49

الظلّ لا صوت له.. (**دُنى غالي**).. 53

كنتُ سمكة سلمون صغيرة.. كيف أروي تلك الحكاية؟ (**رزان نعيم المغربيّ**)......... 59

ذلك الدأب الفاتن (**زكريا عبد الجواد**) 67

الحلّاق البنغاليّ الذي لا يحبُّ عبد الناصر (**سليمان المعمري**) 73

أسئلة الهوية والحفر في الماضي (**عاطف أبو سيف**) 79

عن أيّ فردوس أبحث حين أكون «أزمارينو»؟! (**عبد القادر مسلم**)................. 83

تمارين الرواية.. (**عبد الهادي سعدون**) 87

كيف عبرتُ «الأنهار العكِرة»؟ (**عماد البليك**) 95

بيني وبينَ «نوميديا» سوابق عشق! (**طارق بكاري**)................................ 101

ليس الظلام دامساً، ثَمّةَ ضوءٌ فيه.. (**فوّاز حدّاد**) 105

الرواية الأولى مثل الحبّ الأول (**ليانة بدر**) 111

عن جروح الكتابة والواقع (**ماجد سليمان**) 117

فحم وذرة وكحول.. صراع الروايات (**محمد الأصفر**) 123
انتزاعُ الأملِ من براثن الإحباط/ (**محمد ولد محمد سالم**)........................ 129
خطوتي الأولى في درب الرواية الوعر (**منصور الصويم**) 135
جرحُ الرواية.. توقّع لأصابعك أن تحترق (**موسى رحوم عباس**) 141
في مغارة الخيال.. (**ميّادة خليل**) 145
الإبداعُ قرين الحرّيّـة (**ميس خالد العثمان**) 149
كنتُ أريدُ أنْ أصرُخَ.. (**ناتالي الخوري غريب**)........................ 153
الكتابة تحت وطأة الغضب (**ناصر الظفيري**) 159
فروسية في مهبّ الريح (**هشام ناجح**) 163
لا ولاء إلّا للحقيقة (**هيفاء بيطار**)........................ 169
غونتر غراس يضع أطروحات الحرّيّة والرقابة على نار الاختبار (**وجدي الأهدل**). 173
حكاية امرأة من ريح ونار (**وداد طه**)........................ 179

هل الإنسان إلّا حكاية..!

ما هي حكايتك؟ ما هي هويّتك؟ مَن أنت؟ يبدو أنّ السؤال عن الحكاية هو سؤال عن الهويّة بمعنى ما، وأنّ سؤال الحكاية هو سؤال الهويّة، سؤال الذات والآخر. حين تحكي حكايتك فإنّك تكشف عن هويّتك، عمّا تسعى ذاتك لتأجيل البوح به، أو تخبّئه كزاد للزمن القادم. حكايات الناس وقود لشتاءاتهم القادمة.

«احكِ لي حكايتك..» طلب يتضمّن الكشف عن أسرارك، عمّا يعترك في روحك ويجيش في صدرك ولا تصرّح به لغيرك، وحين تقرّر الإفصاح عنه، والإدلاء به، تكون قد وضعت ما ظللت تتكتّم عليه تحت مجهر القراءة والتأويل، قراءة الآخر الذي لن يبحث في ما وراء الحكاية فقط، بل قد يبحر في خيوطها المعلنة والخفيّة التي قد تكون متقاطعة مع خيوط حكايته؛ حياته، بصيغة ما.

درج الروائيّون على تدبيج الحكايات ونسجها وتحبيك خيوطها وتفاصيلها، أي يضطلعون بأسرار الكتابة والحكاية، ولا ينفكّون يقتحمون غمارها رواية بعد أخرى، يلوذون بالخيال ليكون معبرهم

إلى حكاياتهم وواقعهم، لكن في «حكاية الرواية الأولى» يكون اللجوء إلى الذاكرة، وتقصّي بعض المخبوء في خطوة البدايات، تلك التي لا تخلو من مشقّة ومغامرة وروعة في الوقت نفسه.

لا يحتاج الروائيّ إلى التخييل في توثيق حكاية روايته الأولى لتكون شاهدة، كاشفة، وربّما فاضحة، لبعض أسراره، لأنّه يعود ببساطة إلى ذاك الشخص الذي كانه، ذاك المتردّد في خطوه الأدبيّ، الباحث عن موطئ كلمة له في ميدان غير مقيّد بحدود أو قيود، عالم فضاؤه الحرّيّة والإبداع، ويكون محمّلاً بمسؤوليّة تاريخيّة، لأنّه سيكون مرسال الحاضر إلى المستقبل، مرسال الأمس إلى حاضره، وقلمه المدوّن للتفاصيل والأسرار والوقائع والمستجدّات، وحتّى المتخيّل منها ينطلق من نقاط وجذور وبؤر واقعيّة.

قد يداور الروائيّ في نثر شخصيّته على شخصيّات أعماله، يرسم مصائرها التي قد لا توافق هوى قرّائه، لكنّه لن يلجأ إلى المداورة في تدوين حكاية روايته الأولى، لأنّها جواز مروره إلى تاريخه وذاكرته، والروائي يكون مقتفي أثر ذاته إلى ذاكرته.

ليس بالضرورة أن تكون الرواية الأولى للكاتب هي تلك التي تحمل الرقم واحد في تاريخ نشره، بل قد تكون تلك الرواية الضائعة منه، أو تلك التي لم يتفرّغ بعد لكتابتها وتوثيقها وما يزال يحلم بها، كما قد تكون تلك التي دفعته إلى كتابة روايته الأولى المنشورة، وربّما في أرشيف كلّ روائيّ بذور عدد من الحكايات المتزامنة التي تتنافس لتحظى بلقب الأولى، لكنّها تؤثر جمالية العتمة ولذّة الخفاء والتواري بانتظار فتح صندوق الذاكرة وتحريرها من جمالياتها ولذائذها لتمنح بعضاً منها للمتلقّين والقرّاء.

لكلّ امرئ حكاياته الكثيرة، المثيرة، الغرائبيّة، الساحرة، وأسراره التي تشكّل وقود الذاكرة، وتؤمّن مواساة لصاحبها، ومن الطبيعيّ أن تكون تلك الحكايات وما تشتمل عليه من أسرار مفاتيح للإبداع والاكتشاف.

الروائيّون سفراء الخيال إلى الواقع وموفدو الواقع إلى الخيال في الوقت نفسه، يمضون في طريق ذي اتّجاهين. يعملون على كشف درر الأعماق المخبوءة في داخل الإنسان، يمضون لتجميل الحياة الإنسانيّة بالأدب، لا يقفون عند حدود أو قيود في كشفهم وتعريتهم وتوثيقهم وسردهم وتخييلهم، يبتدعون عوالمهم التي قد تنافس الواقع في تفاصيله ومصادفاته الدائمة.

السرّ يكمن في الحكاية دوماً. سواء انطلقنا من فكرة أنّ الرواية تتمحور حول فكرة: كيف تحكي حكاية؟! أو هل الرواية هي فقط حكاية؟! ابحث عن الحكاية وفيها.

لا يخفى أنّ كيفيّة حكاية الحكاية لا تقلّ أهمّيّةً عن الحكاية نفسها، والروائيّ حكّاء صامت، يستعير صوت الحكّاء ليوظّفه في ترسيم حدود العوالم التي يرسمها وينسجها، والتطبيع بين النقائض التي يلتقطها من الحياة نفسها وينقل جزءاً منها إلى عمله. كما لا يخفى أنّه لولا الحكاية لظلّ جهد الروائيّ كلّه سابحاً في هلام ينشد وصالاً مع خيط من خيوط الحكاية.

يسعى الروائيّ إلى عقد مصالحة مفترضة بين صخب العوالم التي يرسمها، يؤالف بينها بطريقته الأدبيّة، يهدئ عنف الدواخل من خلال تظهير مشاهد قارّة في النفس تعصى على البوح والاعتراف، يلعب دور الغوّاص في مجاهل التاريخ والحاضر والمستقبل، في مجاهل النفس البشريّة التي تظلّ البوصلة والملاذ.

ثلاثـون روائيّـاً وروائيّـة مـن عـدد مـن الـدول العربيّـة يكتبـون حكايـات رواياتهـم الأولـى؛ حكايـات الجمـال والشـقاء والأمـل والحنيـن، حكايـات الحـبّ والصـراخ والتجريـب. يتذكّـرون ليذكّـروا بمـا كان ومـا صـار، وبجـزء ممّـا يتأمّلـون أن تفضـي إليـه فـي زمـن قـادم علـى اعتبـار أنّ الكلمـة لا تقـف عنـد حـدود زمـان أو مـكان، بـل تكمـل رحلتهـا بمعـزل عـن أصحابهـا وحضورهـم. هـي الحاضـرة دومـاً برغـم غيـاب أصحابهـا. والحكايـات هـي الكلمـات الحاضـرة رغمـاً عـن أنـف الزمـن والغيـاب.

فـي «حكايـة الروايـة الأولـى» روائيّـون وروائيّـات حقّقـوا نجاحـات فـي عالـم الإبـداع الروائـيّ، وآخـرون سـائرون علـى درب الإبـداع باحثيـن عـن دروبهـم فـي هـذا العالـم المفعـم بالمفاجـآت المدهشـة، بالمـوازاة مـع الصدمـات والهزائـم الصغيـرة الرابضـة علـى مفترقـات النجـاح والإبـداع.

«حكايـة الروايـة الأولـى» إطلالـة علـى عالـم الروائيّيـن الحميمـيّ، نافـذة يحكـي فيهـا الروائيّـون حكايـات رواياتهـم الأولـى، مـا صاحبهـا مـن مغامـرة، شـغف، متعـة، مشـقّة، تحـدٍّ، صـراع، إرادة، مكابـدة، ومصابـرة. وكيـف أنّهـا شـكّلت عتبـة دخولهـم إلـى عالـم الروايـة السـاحر، ليؤثّثـوا معمارهـم الروائـيّ، ويبلـوروا هويّاتهـم السـرديّة الحكائيّـة فـي هـذا العالـم الثـريّ.

زاويـة نعـود فيهـا مـع الروائيّين إلـى بهجـة البدايـات، وتحـدّي العوائق، والقـرار بالانطـلاق، عسـاها تشـكّل شـرارة انطـلاق بدورهـا للسـاعين إلى كتابـة رواياتهـم الأولـى، أولئـك الذيـن سـتكون لهـم حكاياتهـم المختلفة، التـي سـيحكونها بشـغف ومتعـة أيضـاً. وقـد تـمّ ترتيـب الحكايـات فـي الكتـاب وفقـاً للترتيـب الأبجـديّ لأسـماء المؤلّفيـن.

لأنّ سؤال الحكاية يقترب من سؤال الهويّة، من سؤال الكشف والإعلان، فإنّه يكاد يستعصي على بعض الخائفين الذين يعيشون مخاوفهم وحكاياتهم، ويبقونها طيّ الكتمان، تكون تلك الحكايات وحوشاً تنهش دواخلهم، ولن يستدلّوا على أيّ سبيل للتحرّر سوى بالكتابة والبوح.

الذات في الحكاية تحاور نفسها، ماضيها، ذاكرتها، تؤجّج نيران الحكاية لتنير بها دروبها إلى الآخرين وحكاياتهم؛ هويّاتهم، شخصيّاتهم، آمالهم وأحلامهم ومخاوفهم بدورها.

هل الإنسان إلّا حكاية؟! هل الكاتب إلّا حكاياته التي تبني شخصيّته وتوجّهه في هذا الاتّجاه أو ذاك؟

فلنقرأ الحكايات ولنكتشف شخصيّات أصحابها.

نكاية في النسيان

إبراهيم الحجري*

إرهاصات الحكي

تنفستُ هـواء الحيـاة فـي قريـة موغلـة فـي سـهل دكالـة وسـط المغـرب المتاخـم للمحيـط الأطلسـيّ، قريـة اسـمها لبيـادرة ببلـدة أولاد افـرج، يعيـش أهلهـا علـى الفلاحـة وتربيـة الماشـية. فتحـتُ عينـيّ علـى عالـم تزيّنـه المـروج والغابـات والأنهـار والبحـر، ويلبـس ثيـاب الطبيعـة بتبـدّل الفصـول، فكنـتُ الطفـل الـذي أبهـره هـذا البهـاء، وسـكنه حتـى صـار جـزءاً مـن هـذا العالـم الفاتـن، حيـثُ تبـدو الطبيعـة لوحـةً جميلـةً رسـمتها يـد الخالـق، لوحـة باتـت بعيـدة عـن الأيـادي المدنيـة الباطشـة التـي تسـرق مـن القـرى، بالتدريـج، منظرهـا الآسـر، وتجهـزُ علـى عذريتهـا وصفائهـا وبهائهـا.

* ناقـد وروائـيّ مغربـي مـن مواليـد 1972. حاصـل درجـة الدكتـوراه فـي اللغـة العربيـة وآدابهـا، نشـر عـدة كتـب فـي النقـد والقصـة والروايـة. لـه فـي الروايـة: «صابـون تـازة»، 2011 «البـوح العـاري»، 2012 «العفاريـت»، 2013 «رجـل متعـدد الوجـوه»، 2014 «فصـوص الهـوى»2014.

ساهمتْ هذه الأجواء في رفد ذاكرتي أو رصّها بالمشاهد المشرقة للفضاء الذي نشأت فيه. ومهما سافرتُ بين المدن والآفاق، تظلّ ذكريات بعيدة تستفزّني، وتحرّضني على السرد والكتابة، لأنتشلها من ضياع وشيك، خاصّة في ظل التبدّلات التي تنتهك الفضاء الجغرافي «البلْديّ».

في المدرسة الابتدائية والإعدادية والثانوية، كانت ذاكرتي هي ملاذي الذي أنهل منه اللغة والأوصاف والأفكار. إذ كنتُ أعجن تلك المشاهد والمناظر والطقوس البدوية ببساطتها وتلقائيتها لأشكّل منها مادة للتعبير الإنشائي. وكان المعلمون والأساتذة دوما، يفتتنون بما أكتبه، بالرغم من كونهم يعرفون أنني أفتقر لمكتبة أستفيد منها في امتلاك هذا الأسلوب. أذكرُ أنّني كنتُ مولعاً بالكتابة، صحيح أنها كانت كتابة بسيطة وحُبلى بالأخطاء الإملائية والتعبيرية. لكنها هوايتي التي أحبّ وأرتاح فيها.

كانت لدي طريقة متميزة في الكتابة، لمّا كنتُ في الإعدادي والثانوي. كنتُ أجلس أمام المنظر الطبيعيّ الذي يروقني: طلوع الشمس في أصباح فصل الربيع؛ ركض الخيل في المرج؛ تجمع الناس والأنعام حول البئر، سقوط المطر في المساءات الباردة.. ثم آخذ قلما وورقة وأدوّن ما يعنّ لي من أفكار ولغة واصفة.. هذه العمليّة كانت انطباعية، لكنها ساهمت في صقل مخيّلتي، وعوّدتني على مقارعة شاردات المعاني، والتقاط التوصيفات والمشاهد اليوميّة التي تؤثر فيّ.

فيما بعد، أصبحت أحوّل ما تحكيه لي جدتي « التايكة» - رحمها الله- من حكايات شعبية كلما زارتنا إلى قصص فصيحة، أضيف إليها من خيالي الحافل بالمعاني والأوصاف التي أستقيها من هنا وهناك. كانت الحكايات الشعبية رافداً أساسيا آخر في

تجربتـي. كنـتُ أسـتلهمُ هـذه المـادّة الشـعبيّة الطريفـة الحبلى بالحِكـم والإثـارة والعمـق والتّجـارب مـن الجـدة والأب والأم، وصـرت، فيمـا بعـد، أطلـب مـن أيّ عجـوز ألتقيـه، روايـة حكايـة شـعبية ممّـا تحفظـه ذاكرتـه، أذكـر جيّـدا كـم كنـت أتلهـف لسـماع حكايـات «احديـدان الحرامـي» و«عمتـي الغولـة»، والثعلـب والقنفـذ، والحمامـة والحنَـش، والذئـب واللقـلاق.. وغيرهـا.

فضـلاً عـن ذلـك، كنـتُ مدمنـا علـى الاسـتماع إلـى الراديـو، خاصـة المسلسـلات والتمثيليـات، مثـل: الأزليـة، عنتـرة بـن شـداد، الزيـر سـالم.. التـي كانـت تُبـثّ كلّ ظهيـرة وليلـة الأحـد. مثلمـا كنـت أنتظـر بشـوق يـوم الأحـد، حيـث يقـام السّـوق الأسـبوعيّ الـذي تخصّـص فيـه سـاحة كبـرى لفـنّ الحلقـة، التـي كانـت المُتنفس الوحيـد للبـدو، حيـث يعْـرضُ فنانـون شـعبيّون موادهـم الفنيـة مثـل فـن العيطـة، والمسـرح الشـعبي والحكـي الشـعبي، والعـزف علـى آلـة الوتـار، والقرايـدي، والسـاحر، ونافـخ النـار، والبهلوانـي- وغيرهـم. وكانـت هـذه المـواد تمـلأ علـيّ مفكرتـي، وتحـرّضني علـى تطويـر أدواتـي، كنـتُ لا أفلت شـيئاً أحـسّ أنّـه يلهـم موهبتـي الحكائيّة.

كلّ هـذه العوامـل أجّجـت موهبتـي الحكائيـة فـي الثانـوي، ومـا بعـده، خاصـة لمّـا تخصصـت فـي شـعبة الأدب العصـري، فوضعتْنـي الأقـدار الطيبـة بيـن أيـدي أسـاتذة متنوريـن، يحبـون الأدب والفلسـفة والتميّـز، ويسـعون إلـى نقـل هـذا العشـق إلـى تلامذتهـم، فاحتضنـوا فـيَّ هاتـه الموهبـة، ورعوهـا وسـقوْها بمـاء محبتهـم وأريحيتهـم، وكان الأسـتاذان فيمـار والصّبـار يضعـان بيـن يـديَّ خزانتهمـا الشـخصية، فاطلعـت مـن خلالهمـا، مبكـرا علـى ألـف ليلـة وليلـة وروايـات نجيـب محفـوظ ومنيـف والطيـب صالـح وشـغموم وحنا مينـة وإحسـان عبـد القـدّوس ويوسـف إدريـس وبلـزاك، كمـا أرشـداني إلـى الاسـتفادة مـن المكتبـة المدرسـية فـي الفتـرة الزواليـة التـي كنـت أبقـى فيهـا

جنب سور المدرسة وتحت أشجار الكاليتوس لأتناول وجبة أصحبها معي من البيت، وساعدني على الانخراط في هذه المكتبة من خلال التحدث مع القيّم من أجل أن يعفيَني من رسوم التّسجيل، فتعرّفت على كتابات الجاحظ وابن قتيبة، وحفظتُ من أشعار الجاهليين والأمويين والعبّاسيين، ونهلت من الأدب الإسلامي، مثلما تعرفتُ على كثير من النّصوص السّردية المغربية التي لم يكن لي علم مسبق بها. فبدأتُ أكتب وأمزّق، وأحياناً؛ أعرض كتابات وخربشاتي فيعجبون ببعضها، ويرفضون الأخرى، موجّهين لي بعض الإرشادات كي أحسّن أسلوبي ورؤيتي للعالم، حيث كانت تغلبُ علي النغمة الرومانسية آنذاك، بينما هم كانت تثيرهم الكتابة الملتزمة التي لم تجد بعد طريقها إلى ذاتي في ذاك السن المبكر.

لما انتقلت إلى الجامعة، جامعة شعيب الدكالي، وجدت العالم مختلفا، وأساتذة مغايرين. تهتُ في عالم المدينة، لكن الكلمة التي زرعتْ في نفسيَ التحدي، صدرت عن كاتب قاص وأستاذ جامعي كان يدرّسنا الرواية والمسرح، قال لي بعد أن فكرتُ في إعطائه نصا كتبته ليعلق عليه أو ليوجه لي آراءً تطور تجربتي، سيراً على درب العلاقة التي كانت تربطني بأساتذتي في الثانوي: هل بهذه السرعة تريد أن تصبح قاصّاً؟

ولم يأخذ مني الورقة. عُدت خائباً. وتمنيت لو أنّ الأرض انفتحت وبَلعتني. كان الأصدقاء ينظرون إليَّ بإشفاق. وانسحبت محبطاٍ من الجامعة إلى بيتي المتواضع في حيّ الصفاء، ثم تكوّمت حول نفسي مدة من الزمن، لم أعبأ فيها لا بالدروس ولا بحضور المحاضرات، ولا بلهو الأصدقاء. كنت ألعن هاته الموهبة التي وضعتني في هذا المأزق.

من القصة إلى الرواية

ترتب عن الإحباط الذي أوقعني فيه رد أستاذ مادة المسرح، صعودُ نكهة التحدي في نفسي. هناك أشياء داخلية أكثر من السابق تحفزّني على الانطلاق؛ تقول لي بإصرار: «أنت منذور للكتابة، وما من أحد يستطيع إقبار موهبتك، كما لا يمكن لأحد أن يجعل منك كاتبا بالقوة. أنت وحدك من يستطيع أن يحول تلك الطاقات الكامنة إلى منجز سردي!»

وصادف أن التقيتُ بمجموعة من الشباب في إحدى اللقاءات الأدبية التي نظمتها جمعية البحث المسرحيّ بسينما الريف بمدينة الجديدة؛ منهم الشاعر عبد الرحيم سليلي والشاعر أبو بكر متاقي، والقاص رشيد الزاكي، والشاعر مصطفى ملح، وإسماعيل بنهنية الذي سأصدر بمعيته، فيما بعد، مجموعتنا القصصية الأولى بالاشتراك، والقاص شكيب عبد الحميد والقاص الطاهر الحمزاوي، والشاعر حكيم عنكر والقاصة عائشة موقيظ والشاعر جباري محفوظ - وغيرهم.

كان الكل ما يزال يبحث ذاته، ويتلمس الطريق إلى صوته الإبداعي الخاص به وسط الأشواك المتربصة، وبين دوامات وزوابع الإحباط المتناسلة حولنا. فجمَعَنا هذا الهمّ المشترك، ووجدت في هذه اللمة الجدار الذي أسند إليه ظهري بعد افتقاد أساتذتي في الثانوية الذين ظل يشدني إليهم الحنين، فبتُّ كلما سافرت إلى البلدة أزورهم في الثانوية وأحكي لهم الجديد، وأشكو لهم العزلة التي صادفتها. فكانوا ينصحونني بكون هاته العزلة ضرورية لتخلد إلى كفاءاتك وموهبتك. لقد حان وقت الخروج من القوقعة، وإفلات صوتك الخاص مهما بدأ خافتاً في البداية، فإنه، مع الزمن سيشتد، ويلعلع عالياً في الآفاق!

وكانـوا يبسـطون أمامـي السـبل المغلقـة، ويجعلوننـي صلبـاً فـي مواجهتهـا. وراحـوا يحرضوننـي علـى التخلـي عـن الحاجـة إلـى الأبويـة والحُضـن والمشـيخة فـي الكتابـة لأنهـا فيـروس قاتـل للموهبـة والتميـز. كانـوا يقولـون لـي: لا تكـن إلّا صـدى لنفسـك، لروحـك، ولجوهـرك الخـلاق.

فـي البدايـة نشـرت قصصـاً فـي صفحـات ثقافيـةً خاصـةً بالشـباب فـي جريـدة الاتحـاد الاشـتراكي (علـى الطريـق)، وفـي جريـدة العلـم (حـوار)، وجريـدة الميثـاق الوطنـي (شـباب) قبـل أن أتسـلل شـيئاً فشـيئاً إلـى الملاحـق الأدبيـة التـي كانـت تعتبـر مدرسـةً قويـةً لتكويـن الشـباب المبـدع آنـذاك، حيـث يشـرف عليهـا أدبـاء مغاربـة كبـار مثـل: إدريـس الخـوري، عبـد الجبـار السـحيمي، عبـد الكريـم غـلاب، نجيـب خـداري، عبـد الحميـد بـن داوود، إدريـس الملياني، محمـد صـوف، محمـد علـوط، الشـاعر العراقـي فـراس عبـد المجيـد، محمـد بهجاجـي، مصطفـى اجماهـري،... وكان بعـض هـؤلاء يفـردون زوايـا خاصـة لتوجيـه الكتـاب الجـدد، وصقـل مواهبهـم، يتكفـل بهـا كبـار النقـاد والكتـاب فـي البلـد. وكنـتُ بالمـوازاة، أراسـلُ برامـج أدبيـة ببعـض القنـوات الإذاعيـة الوطنيـة والعربيـة (إذاعـة طنجـة، إذاعـة أكاديـر، إذاعـة لنـدن...)، وكنـت أسـتفيد مـن التوجيهـات والملاحظـات التـي يخصهـا الضيـوف ومقدمـو البرامـج للتجـارب الصاعـدة، فـي صقـل موهبتـي، وتطويـر منجزاتـي السّـردية.

فـي سـنة 2000 سـيحصل منعطـف جديـد فـي تجربتـي الكتابيـة، حيـث احتفلـت أنـا وصديقـي إسـماعيل بنهنيـة بـأول منجـز قصصـي لنـا، طبعنـاه معـا علـى نفقتنـا بمطبعـة القروييـن بعـد مـا فشـلت كل المحـاولات فـي إيجـاد ناشـر يحتضـن هـذه التجربـة المشـتركة. وبالرغـم مـن المعانـاة التـي تكبّدناهـا مـن أجـل أن يخـرج هـذا العمـل إلـى حيـز الوجـود، فقـد كان لـه وقـع كبيـر فـي ولوجنـا المشـهد الثقافـي مـن بابـه الواسـع، فنظمـتْ لنـا

بعض الجمعيات حفلات توقيع، وكتبَ حول العمل بعض الأصدقاء والنقاد، وبفضله حصل نوع من الترويج لاسمينا وكتاباتنا.

وبالموازاة مع كتاباتي القصصية، كنت أباشر عملاً سردياً طويلاً، استغرقت خلاله سنوات. واستلهمت فكرة العمل من خلال رحلة قمتُ بها خلال بداية التسعينيات إلى بلدان المغرب العربي؛ ابتداء بالجزائر وتونس وانتهاء بليبيا، حيث أقمت هناك مدة خمسة شهور في محاولة للعبور السرّي إلى إيطاليا، ولما باء هذا الحلم بالفشل، تحول من فكرة جحيمية على مستوى الواقع إلى مشروع تخييلي إبداعي.

تركتُ هذا العمل ينضج على نار هادئة، ولم أكن أستعجل به. شاركت بهذا العمل الروائي الذي أسميته في البداية (كناش الجسد والجراح) في جائزة الشارقة بالإمارات العربية المتحدة، وحصل على تنويه سنة 2001م، وقبلها كنت حصلت عن طريق مجموعتي القصصية (يد أخرست شهرزاد) على تنويه جائزة اتحاد كتاب المغرب سنة 1999م. وكانت هذه المكتسبات تقوي تجربتي، فعكفتُ على تنقيح روايتي وتعديلها وتصحيحها، وإضافة بعض المشاهد السردية إلى متنها، ثم اخترت لها عنواناً جديداً (البوح العاري)، وشاركت بها في جائزة دبي للإبداع العربي، سنة 2004م، فحازت على الجائزة الثالثة، وكان قد فاز بالجائزة الأولى الروائي العراقي الذي فاز بجائزة بوكر العربية دورة 2014م أحمد سعداوي.

فكان هذا تحفيزاً لي على مواصلة الكتابة الروائية التي كانت كشفا جديدا بالنسبة لي، بعدما بدأت قاصّاً وشاعراً، وشيئاً فشيئاً بدأت أجد ذاتي في هذا الاختصاص الأدبي الذي غدا يأسرني ويشدني ويسرقني من الاختصاص القصصي الذي بدأت به تجربتي في الكتابة.

وجدتُ في الرواية عالماً فسيحاً للتجوال؛ فبدل أن يظلّ الرواة في القصة محبوسين في فخاخ الكثافة والإيجاز والتلميح، تنهض أمامهم، في الرواية، مساحات أكبر للبوح، والحكي والوصف وتفصيل الوقائع وتشعبها، وتعقيد الحبكات، وقول ما يمكن قوله في باقي أجناس التعبير. لقد منحتني الرواية بعوالمها الرحبة وإمكانياتها التخييلية فرصة أكبر لوصف المشاهد الوقائع والأحداث. فكتبتُ فيها ذاتي، والوجوه التي شاركتني الفرح والحزن وشاطرتْني مكابداتِ ليالي السّرى والضيق وساحات الصراع من أجل البقاء والتطور. ووسّعت لي سبلاً وآفاقاً لأضمن ذاكرة الأجداد، وتاريخ القبيلة والبلد والناس الذين مرّوا من هنا وتركوا فيّ وفي المكان آثارهم وأصداءهم! استطعتُ في الرواية أن أدوّن ما يعنّ لي من أخيلة، وما تلتقطه مفكرتي من شوارد الأفكار والمعاني والشخوص، وما يحفل به الفضاء من مفارقات وصراعات وخرافات وأوهام، وما تتناقله ذاكرتنا الثقافية الشعبية من نصوص متنوعة تضيع مع الوقت.

لقد جعلتُ من رواياتي عالماً مزحوماً بهذه التفاصيل، متدفقا بهذه الأخيلة التي عشتها أو حلمتُ بها أو تخيّلتها أو عاشها أناس قبلي أو سيعيشها أناس بعدي! جعلتني الرواية، باختصار، أكتبُ كلّ الأجناس في جنس واحد، وهيأتْ لي أرضاً لأمارس كلّ شطحاتي الإبداعية، وأبديَ مهاراتي الكتابية في الشعر والزجل والقصة والخاطرة والترسل والحكي الشعبي والحوار والتوصيف والتحليل...! في الرواية أمارس وعيي الثقافي وأحرّر لا وعيي من اللّمعات الصعبة التي تسكنه، تصير شفاء للذات، وهي تتخلص مما يشوش عليها صفاءها وسكونها. تصبح عالما تسكنني وأسكنها، وأهرب من الواقع إليها كلّما ضاقت بيّ الفُسحاتُ.

النشر

انتهيتُ من كتابة رواية الأولى «البوح العاري» سنة 1999م، ولم يكتبْ لها النشر حتى سنة 2012م بالرغم من كونها حازت على جائزة تخوّل لها النشر منذ سنة 2001م، غير أنّ سوء حظها، جعل إدارة الجائزة، في تلك الدورة تقتصر على نشر وطبع العمل الفائز بالجائزة الأولى فحسب؛ فعزمتُ على طبعها على حسابي الخاص بقيمة الجائزة المحصل عليها، فقد كنت أحبّ أن يكون عملي الثاني المنشور روايةً. واتفقت مع طابع مغربي (دار القرويين بالبيضاء) على سحب ألف نسخة، وقدّمت له تسبيقا قيمته (مائتا دولار). وبتُّ أنتظر بفارغ الصبر؛ كان ذلك سنة 2004م؛ كنتُ قد رقنت العمل في مؤسّسة خاصّة، وسلّمت للطابع القرصَ الوحيدَ الذي أملكه. كانت ثقافتي الإلكترونية آنذاك متواضعة.

وفي مساء ماطر، اتصل بي الناشر كي يخبرني بأنّ القرص ضاع منه بعد مرور أكثر من شهر. أصبت بإحباط شديد. ولمّا عدتُ إلى المؤسسة التي رقنت لي العمل، وجدت أنها انتقلت إلى مكان مجهول، وعُوّض محلُّها ببائع للحلويات، فعدت خائباً. كان عليّ أن أعيد الرقن في مؤسسة أخرى، وأن أتكبد مشاق التصحيح والسفر المتكرر إلى البيضاء التي كانت وحدها آنذاك، تتوفر على هاته الخدمات.

قادني الإحباط والحظ العاثر لهذا النص، إلى أن أنسى هاته التجربة أو أؤجلها إلى حين، ثم انصرف إلى كتابة نص روائي آخر كنت قد هيأت مادته الحكائية، وحررت فصولا مبعثرة منه. ولم يتحرر هذا النص إلا سنة 2011، من قبل دار النايا ودار محاكاة، أي بعد صدور رواية أخرى.

عكفت على الرواية الثانية تحريراً وتصحيحاً، فانتهيت منها في غضون ستة أشهر، وأسميتها في البداية «بقر علال»، كانت رواية مختلفة عن سابقتها، ذاك أنها كانت حافلة بدرامية مجتمعية مؤلمة، وعالجت ظاهرةً تميز منطقةً تدعى أولاد افرج الدائرة التي تنتمي إليها قريتي (أم الرأس)، وهي ظاهرة الجنون، هناك ضريح لولي صالح يدعى «مسعود بن الحسين»، يعتبر هو المركز الذي تدور حوله أنشطة القرية. حيث يقصده الناس بالمئات، ظنا منهم أنه يعالج المس والصرع والحُمق وأمراض الباطن... فيكترون بيوتا وضيعة هناك، مدة من الزمن أملا في شفاء مرضاهم، فلما ييأسون من ذلك، يتخلون عن مرضاهم هنا، ويرحلون إلى بلداتهم. فإذا بالمنطقة أصبحت تنغل بهؤلاء المرضى الذين أصبح عددهم يتضاعف حتى أضحى أكثر من عدد السكان في غياب ملاجئ وإقامات ومآوي، وغياب أية شروط إنسانية أو اجتماعية. تطلب مني هذا العمل بحثا ميدانيا لجمع المادة الحكائية حول الظاهرة، فأقمت أياماً عديدة بأضرحة السادة مسعود بن الحسين، بويا عمر، بويا رحال... هذا العمل الروائي فاز بتنويه جائزة دبي (دورة 2008م). كما فاز، بعد ذلك، سنة 2010م بجائزة «رواية» بمصر التي خولت له الطبع والنشر، لكن للأسف كانت الطبعة رديئة جدا، مثلما كان النشر محليا.

عدتُ سنة 2006م إلى أرشيف مذكراتي السّردية التي استجمعتها لمّا كنتُ أشتغل بمدينة طانطان بالجنوب المغربي. كانت عبارة عن ذكريات ومشاهد ووقائع من وحي المكان والزمان والعلاقات، وفكرتُ أن أعيد صياغة هذه المادّة روائيّا؛ جعلتُ الفضاء هو الصحراء، واستنبتُ فيه شخوصا، أسندتُ إليها أدواراً، وصفاتٍ، وتصرفتُ في تلك المادة المتوفرة التي أغنت الرواية، ويسرتْ عليّ

عملية تأسيس عوالم متداخلة ومتفاعلة. أسميتُ هاته الرواية بداية، «الفطواكي» انبثاقاً عن اسم بطل الرواية الذي يتحدّر من شمال المغرب، ثم غيرته، فيما بعد، إلى «تغريبة الجنوب»، وعند النشر، أسميتها «فصوص الهوى». وقد قدم لهذه الرواية الكاتب السعودي الصديق يوسف المحيميد، وصدرت عن دار النشر النايا سنة 2014م. وبما أن الصياغة النهاية لهذه الرواية تأخرت قليلاً، فقد سبقتْها إلى النّشر عن الدّار نفسها رواية «العفاريت» الجزء الثاني من رواية «صابون تازة».

لم تنحلّ عقدة النّشر بالنسبة لي، وبالنسبة لكثير من مُجايليّ من الشباب، إلا عند ما عرضتُ أعمالي على ناشرين من خارج المغرب، فالأمر لا يتعلق بضعف بنيات النشر فحسب، بل يرتبط بهيمنة فئة لا تريد لأجيال جديدة أن تتنفّس هواء الانتشار. التقيتُ بمدير دار النايا، فعرضتُ عليه عملي الرّوائي «البوح العاري»، ووعدني بعرضه على لجنة القراءة، ثم إخباري بالرد النهائي في حدود شهر، وفعلا وافقت الدار على نشره، ثم استمر التعاون فيما بيننا من خلال نشر عملين روائيين آخرين، ويتعلق الأمر بـ «العفاريت» (2013م) و»فصوص الهوى» 2014م، وساهم هذا الناشر في توزيع الأعمال عبر الأقطار العربية، خاصّة أنه يشارك في حوالي 16 معرضا. فتحقق، بالنسبة لي، الرواج المطلوب لاسمي كروائي.

هذا الرّواج سيجعل أهم دار نشر مغربية (دار توبقال) تتحمس لنشر روايتي (رجل متعدد الوجوه) التي تعتبر الجزء الثالث من مشروع روائي مفتوح، بعد «صابون تازة» و»العفاريت»، أراهنُ من خلاله على سبر أغوار العالم القرويّ الذي يشدّني إليه حنينٌ مفرطٌ، وخبرتُ من خلال انتمائي إليه، العلاقاتِ الملتبسة التي يتأسّس عليه، سواء تلك

التي ترتبط بين الإنسان والإنسان، أو تلك التي تربط الإنسان بالمكان والطبيعة. وتتمثل غايتي، من خلال هذا الاهتمام بخلق عالم يُسائل فضاءات القرية وإشكالاتها وتحولاتها، في إيصال صوت البدويّ الذي يعاني، في صمت، تملّص المنتخبين والمسؤولين من وعودهم وبرامجهم التي على إثرها وضع البدو ثقتهم فيهم من ناحية، ومن ناحية أخرى السّهر على إبراز قدرات النّص الرّوائي على احتواء تعالقات القرية وتداخل وقائعها وبساطة عيشها، ضدّاً على حصر بعض النداءات، الصوت الروائي في عوالم المدينة وارتباطه بها، إذ إنّ الرّواية- كجنس أدبيّ- مثلما نجحت في معالجة قضايا المدينة والإنسان المدينيّ، فهي أيضا قادرة على ملامسة جوهر القضايا التي تقترحها القرية والمجموعات البشرية التي تستوطنها، وتصوير البنيات العلائقية المتشابكة التي تشكّل نسيج مجتمع البادية، ورصد الخطاطات الذهنية المتحكمة في سلوكيّات الناس وعاداتهم ونظرتهم إلى العالم.

صدرتْ لي- لحدّ الساعة- خمسةُ أعمال روائيّة (صابون تازة، البوح العاري، العفاريت، فصوص الهوى، رجل متعدد الوجوه). وفي جعبتي نصٌّ روائيٌّ مخطوط، أسميته (كهف اللذة، كهف الموت).. ومثلما أنّ الحياة كتاب مفتوح على التّجارب المفاجئة الجميلة والمرّة، فكذلك تبدو، بالنسبة لي، الرواية أفقاً مفتوحاً على الاحتمالات والأحلام والتجدّد المستمرّ باعتبارها كتابَ الروائيّ الذي يوازي حياته الموغلة في العمق والتبصّر والغوص في تفاصيل الإنسان والزّمان والمكان.

كنتُ خيالاً موجوعاً وبطلي واقعٌ مُوجع

إسماعيل يبرير *

تمهّلت ما يكفي لأكتبَ عن روايتي الأولى، ما من مانع سوى أنّي لا أذكر تماماً إن كانت «باردة كأنثى» حقّاً روايتي الأولى؟ كنتُ أعيش طفولتي ومراهقتي معتقداً أنّي بطل رواية ما، أمشي وأنا على يقين أنّ خطوتي القادمة جملة يقرأها أحدهم، أقفُ وأحرس جيّداً وقفتي، كُنت حريصا جدّاً طوال سنوات كوني مراقباً من قبل هذا القارئ، ولم أتساءل أبداً لم كنت الكاتب والبطل والقارئ المتوهّم في آن؟ استفدتُ من هذا في عمليّة الكتابة، تلك التجربة النفسيّة جعلتني أتعامل برفق مع شخوصي، وأدخلتني في لبس النصّ الأول.

«الرّواية هي أن تحبّ الحياة» هكذا قلت لصديقي الرّوائي عبد القادر برغوث في بداياتنا، قبل أزيد من عشرين سنة في مقهى العروسي بمدينة الجلفة، ثمّ أعجبتني العبارة فعدتُ أردّدها، يومها

* روائي وإعلامي جزائري، كانت روايته «وصية المعتوه، كتاب الموتى ضد الأحياء» قد فازت بجائزة الطيب صالح العالمية في الروايةفي 2013، كما كانت روايته «ملائكة لافران» قد فازت بجائزة الرئيس الجزائري سنة 2008، ومسرحيته «الراوي في الحكاية» بجائزة الشارقة للإصدار الأول العام 2012.

بدأت أتملّص من كوني شخصاً وأجد لي شخوصاً آخرين أتمرّن عليهم، لكنّ الكاتب فيّ تغوّل وأصبح ديكتاتوراً يرهقني، كنت أكتب قصيدة وحين فراغي أو تصوّري أنّي فرغت منها أشرعُ في قصّة قصيرة، وقبل أن أكملها ألجأ إلى الرّواية التمرين، ما كان عنوان تلك الرّواية؟ لا أذكر ولا أحسبني وضعت لها عنواناً، كانت حكاية حبّ بين رسّام هو سمير وفتاة أحبّها لا أعرف كيف غاب اسمها، أخذت منّي الرّواية التمرين أسبوعاً وربّما أكثر، وحين انتهيت من تسويد أوراقي وضعت لها ما يشبه الغلاف، ثمّ التقيت بعض الرّفاق لأقدّم لهم أوّل رواية أكتبها، وقتها انفجر في وجهي أحدهم وطلب منّى أن أترك السّرد وأهتم بمجال محدّد، الشعر أو المسرح أو الرّواية؟ ولسبب ما شعرت أنّ شيئاً تكسّر داخلي، أكنت دعيّاً في كلّ هذا؟ وهل أنا طفل ساذج يبحث عن سبب للبقاء؟

أحرقت المخطوطة واعتزلت الرّفاق إلا عبد القادر برغوث الذي ظلّ أقرب إليّ من كلّ أعمالي وأحلامي إلى غاية اليوم، لكنّها لم تكن أبدا روايتي الأولى، فأنا الكاتب الدّائم للرّوايات الأولى. في كلّ تجربة أشعر أنّي أبدأ مجدّداً، حتّى في رواياتي التي تتقاطع وتشكّل مشروعاً مشتركاً ظلّ هذا الشّعور يتنابني، أنا كاتب يكابد ويعاني ويكتب بدم الكبد، أتلمّس خبرة الكتابة داخلي لكنّها لا تنقذني أبدا من شعوري المفرط بمأزق أنّ كتابة نصّ مبرّر وأقرب إلى الاكتمال، مع إدراكي المسبق لاستحالة اكتمال المعنى.

سأكلّم النّاس دائماً عن «باردة كأنثى» كأولى رواياتي، وسأعدّها كذلك لمجموعة اعتبارات من بينها أنّي كتبت النصّ وضيّعته وأعدته كأنّي حفظته؟ يحفظ الرّوائيون روايتهم كما يحفظ الشّعراء قصائدهم، ولا مجال هنا لتفسير الأمر، لا لشرح الشعرية السريّة للرّواية والحياة.

بدأتُ كتابة الرّواية في غابة بالجزائر العاصمة، اختفت الآن أحراشها وبوهيميّتها وجمالها المخيف، هذّبتها السّنوات وتحوّل جزء منها إلى حديقة، وقتها كنتُ أملك بيتاً في تلك الغابة، ليس بيتا بالمفهوم المتعارف عليه، لكنّها زاوية تليقُ ببدائيّة وهمجيّة ألمي حينها، كان البرد يحكم الجزائر لسنوات، المدن ميّتة والشّوارع لا تمنحك أيّ وعد أو أمل، وكنت أعيش مرتدّاً كبطل لرواية ما؟ استرجعت وضعي الطّفوليّ وبدأت أشعر أنّي حالة مسيّرة، أنّ كاتبي الذي كنته يراقبني، هل كنت مجنوناً؟

ربّما ما أزال، قرّرت حين اكتشفت المكان أن أهرب إليه، هكذا أفشل مخطّطي الرّقابي، ولم أتجهّز بالكثير فقط أوراق بيضاء وأقلام، بدأت أكتب تجربة مختلفة وكنت وقتها لا أملك رصيداً، كتبت بضع قصص، ثلاثة دواوين شعر غير منشورة، ومسرحية «الإزميل والمعنى»، لم أعثر على الرّواية أوّلا بل على العنوان، خاطبت الحياة والمدن والغابة والمرأة، جميعهن كنّ باردات، من هنا قرّرت أنّ نصّي غير المجنّس بعد سيكون بعنوان «باردة كأنثى»، كنت أكتب كمريض يخضع لعلاج مكثّف -وهنا لا يخيفني تشخيص الكتابة كعلاج فهو أفضل من الاعتداء الذي ساد وقتها وما يزال- اخترت اسم «إدريس نعيم» لأعذّبه عذاباتٍ عميقةً لا تشبه عذاباتي إلّا في درجة الإيلام، وكان لهذا الاسم حكاية في سنوات الجامعة، حيث حصلت على علامة 2 في إحدى المواد، بينما حصل إدريس نعيم على علامة 12، والواقع أنّ شريكتي البحث حصلتا على نقطة إدريس نعيم ذاتها، وبدأتُ رحلة لإقناع الأستاذ أنّي مظلوم، بينما هو يصرّ على غيابي يوم إلقاء البحث، وفي النّهاية وبشهادة الزّميلتين أصبح علينا أن نحضر إدريس نعيم ليشهد أنّه لم يقم بالبحث، والمأزق أنّه

لا يوجد شخص بهذا الاسم في الجامعة! كان إدريس هو موسيقى أو صدى لاسمي في أذن الأستاذ، واخترعَهُ خياله المتقاعد ليساعد الحياة على تعذيبي، هكذا إذن بدا لي أنّ الشخص الخيالي إدريس نعيم يعذّبني أنا الواقعيّ المعذّب بانتمائي ووجودي سلفا، وما أدراك أنّك واقعيّ؟ حقّا، أيكون إدريس نعيم هو الواقعيّ ونحن الكائنات الضالّة في الخيال؟

في بيتي الافتراضيّ وتحت سقف السّماء كتبتُ «باردة كأنثى» مقرفصاً، دفعةً واحدةً كأنّ يداً أخرى ترتدي يدي، وتركتها حين اكتملت في الغابة، بقيت أوراق الرّواية تنتظر لمدّة سنة كاملة، وحين عدت مرفقا بحبيبتي آنذاك وزوجتي الآن الرّوائية أمينة شيخ، لم نعثر على الشّيء الكثير، أوراق محا المطرُ كلماتها، وتصلّبت وفقدت بياضها، بعضها كان أزرقَ، رغم أنّي كتبت بحبر أسود على بياض، وبعضُها ترابيّ اللّون. ضاعت الرّواية قصداً، وهو ثاني إعدام لها، فقد كتبتُ بعض فصولها وأطعمتها الماء وأنا جالس أعلى «صخرة الموت» في ضواحي الجزائر العاصمة، تلذّذتُ وأنا أُبيد إدريس نعيم وألقي بمصيره إلى الماء، لقد كان بطلي الأثير/ كنت بطله الأثير، والذي فعلتهُ هو انتحار معنويّ، إذ يتعذّر عليّ إلقاء جسدي في الماء، لم أبكه، وحين عدت فارغ اليدين إلى مدينتي الجلفة قرّرتُ فجأة أن أكتب رواية أخرى، وبدأتُ مجدّدا لأجدني أمامها، أنهيتها بسرعة، وأودعتها الدّرج، بعدها بسنوات قليلة قدّمتها لجائزة مالك حدّاد التي وُئدت باكرا، وتركت الرّواية انطباعاً حسناً لدى اللّجنة أو هكذا بلغني، قرّرت رابطة الاختلاف (مُنظّمة الجائزة) أن تنشر الرّواية منذ 2006، وانتظرت حتّى 2013 لتنشرها منشورات الاختلاف التي انبثقت عن الرّابطة بالشّراكة مع منشورات ضفاف اللّبنانية، إثر فوزي بجائزة الطّيب صالح عن رواية أخرى، وحين صدرت لم أعد أعرفها تماماً،

ولـم يبـق بحوزتـي منهـا إلا إدريـس نعيـم، لـم يمـت فـي تلـك الرّوايـة، لقد بعثتـه مجـدّداً فـي روايـة «وصيّـة المعتـوه، كتـاب الموتـى ضـدّ الأحيـاء»، منحتـه صفـات أخـرى حـالات أخـرى وحيـاة مختلفـة، هـل أمعنـتُ فـي تعذيبـه؟ لا أعتقـد، وهـل كنـتُ بصـدده رؤوفـا؟ لا أعتقـد، لقـد تكرّسـت الكتابـة الرّوائيّـة فـي ثالـث رواياتـي بعـد «ملائكـة لافـران» لهـذا فقـد استعدت إدريـس فـي وضـع مختلـف، ومـن سـؤاله الوجـوديّ الحـارق، أودعتـه دعـةَ وطمأنينـةَ المعتـوه، وجعلتـه يُشـفى دون أن ينتبـه إلـى ذلـك أحـدٌ فـي آخـر رواياتـي «مولـى الحيـرة»، هكـذا تخلّصـت منـه تمامـاً، بـل تخلّصـت مـن الرّوايـة الأولـى لأكتـب أخـرى وأخـرى.

وأنـا الآن أشـتغلُ علـى روايتـي الخامسـة «نمائـم العشّـاق» أنـأى عـن تجربـة أغلقتهـا بمولـى الحيـرة، وأسـتعيد الرّوايـة الأولـى فأجـزمُ أنّهـا روايـة الظـلّ، الرّوايـة التـي تصّاعـدُ كلّمـا اعتقـد الرّوائـيّ أنّـه تمـرّسَ وقضـى علـى ارتبـاك الكتـاب الناشـئ.

كنـتُ سُـلطةً ومحكومـاً، ثـمّ تعلّمـت بعـد الرّوايـة الأولـى أنّـي أقـلّ مـن سـلطة وأعلـى مـن محكـوم، أنّـي كاتـب روايـات، كيـف أفلـتَ أبطالـي؟ بسـهولة؛ لقـد توهّمـت وجعلتهـم يتوهّمـون الحريّـة، يلبسـوني إلا قليـلاً فيصيـرون أنـا، وألبسـهم إلا قليـلاً فأصيـر هـم، وأحافـظ فـي ذاك علـى خياراتهـم التـي قـد لا تناسـبني، ويحترمُـون خياراتـي التـي تناسـبني، لـو أنّ القـدر القليـل مـن الصّرامـة والرّقابـة يغيـب عنّـي لغيّبـت مبـرّرات الكتابـة كلّهـا، الرّوايـة الأولـى هـي الرّوايـة التـي أكتبهـا الآن طالمـا أعتقـد أنّـي أفضلهـا عـن سـابقاتها، أمـا الرّوايـة التـي أسّسـت لـي روائيّـا فهـي «بـاردة كأنثـى» التـي تشـعرني الآن بالـدّفء.

أردت أن أضع بصمتي على جبين هذا العالم

بدر أحمد علي *

بـدأت الكتابـة فـي سـن مبكـرة.. قصـة.. نثـر.. متـى؟.. حقيقـة لا أدري! لكنّني أذكـر أنّني كنـت أكتـب وأفـرغ مـا يـدور فـي نفسـي علـى صفحـات الـورق، ثـم أسـتطلع آراء الأصدقـاء، فأحتفـظ بمـا أكتـب أو أرميـه أو أتلفـه.. لا أتذكّـر تحديـداً، لكنـي أتذكـر جيـداً أنـي لـم أفكّـر يومـاً بنشـر مـا أكتـب علـى أي وجـه كان وظـلّ الأمـر كذلـك.

فـي العـام 2011 م اندلعـت ثـورات الربيـع العربـي وتفاجـأ العالـم بخـروج الجماهيـر بمختلـف أطيافهـا إلـى الشـارع تنـادي بالتحـرر والانعتـاق مـن هيمنـة أنظمـة رثّـة أهلكـت الحـرث والنسـل. كنـت أراقـب مـا جـرى ويجـرى فـي ليبيـا وسـوريا واليمـن، شـعرت ولمسـت تـوق الجماهيـر التـي طحنهـا الفسـاد إلـى الحريـة والعدالـة الاجتماعيـة، شـاهدت لهيـب الثـورة يندلـع ويحـرق عـروش الظلـم والعسـف، كمـا

* روائـيّ يمنـيّ مـن مواليـد 1979، درب الآداب، صـدرت روايتـه «أمطـار سـوداء» عـن دار الوطـن للصحافـة والطباعـة والنشـر - الربـاط- المملكـة المغربيـة فـي العـام 2012 م، لـه عـدّة روائيـة أعمـال تحـت الطبـع.

شـاهدت النباتـات المتسـلقة تشـوّه جسـد الثـورة وشـاهدت الديـدان الطفيليـة تنخـر جسـدها.

فـي مـارس 2011 م بلـغ الانفـلات الأمنـيّ ذروتـه فـي المـدن اليمنيـة عامـة، وفـي مدينتـي علـى وجـه الخصـوص، وبدأنـا نشـاهد فـي شـوارع مدينتنـا وأزقتهـا غربـاء مسـلّحين يسـلبون وينهبـون ويقتلـون فـي وضـح النهـار وفـي عـرض الشـارع، وبدأنـا كذلـك نشـاهد جثـث ضحايـا الاحتجاجـات تعـرض علـى شاشـات القنـوات الفضائيـة، كان الأمـر جنونيـاً ولا يمكـن تصديقـه، أجهـزة الدولـة ومؤسّسـاتها توقفـت عـن العمـل ان لـم تكـن انهـارت كليـاً، السـلع الأساسـية اختفـت بيـن ليلـة وضحاهـا مـن علـى رفـوف المحـلات وظهـرت فـي السـوق السـوداء. الكهربـاء انقطعـت كليـاً، خدمـات الإنترنـت توقفـت، الاتصـالات تذهـب وتعـود، النفايـات تكدسـت فـي الشـوارع والأزقـة، إطـلاق النـار لا يتوقّـف بسـبب ومـن دون سـبب، رصـاص مجهـول يتسـاقط مـن السـماء ويحصـد الأرواح فـي الأسـواق والمـدارس والشـوارع، عصابـات التهريـب تحتكـر السـلع الأساسـية وتبيعهـا وفـق مـا تمليـه عليهـا مصالحهـا، خـلال أشـهر فقـط تحوّلـت البـلاد إلـى غابـة كبيـرة ظالمـة متوحشـة، المواطـن البسـيط الـذي خـرج لينـادي بالحرّيـة وبالحقـوق المدنيـة وبالعدالـة يجاهـد ويسـتميت للبقـاء علـى قيـد الحيـاة!

طبيـاً: كان الوطـن فـي حالـة مـوت سـريريّ يسـتحيل انتشـاله منهـا، طبيـب متفائـل قـال لـي باسـماً: اصبـروا فالوطـن يحيـض ويتخلـص مـن سـمومه وأمراضـه!

كيميائيـاً: كان الوطـن يتحلّـل ويتفسّـخ ويتحـوّل إلـى محلـول نتـن غيـر متجانـس لا تأثيـر ولا تصنيـف لـه!

فيزيائياً: كان الوطن «لافلز» يسقط نحو الهاوية بعجلة تساوى عجلة السقوط الحر!

اجتماعياً: كانت عرى المجتمع تتفسّخ وشريعة الغاب هي التي تسود!

في أمسية من أمسيات مارس2011 م وجدتني أقف على قارعة الطريق في منطقة نائية، كانت السماء تمطر كما لم تفعل من قبل، لحظتها لم أكن آبه للمطر ولا للمياه التي غمرت قدميّ، فقد كنت أشعر بوحشة غريبة تلفّني، جعلت عيني مسمّرتين على نهاية الطريق أنتظر قدوم سيارة تقلني إلى منزلي، فجأة قدمت من نهاية الطريق ثلاث درّاجات نارية، عبرت المياه والمطر والبرق وتوقّفت على بعد خطوات منّي في منتصف الشارع تماماً، ترجّل منها ستة مسلّحين، قطعوا الطريق بأحجار وأقاموا حاجزاً طيّاراً (للتفتيش)، وبدأوا في انتظار السيارات القادمة. لم يلق أي منهم بالاً لي أو لوقوفي أو لصمتي، لحظتها فقدت إحساسي بالمطر وظللت أحدّق فيهم، في ملامحهم، في ملابسهم، في أطرافهم الهزيلة، في أسلحتهم، في وجوههم الشاحبة، وفى الشرّ الذي يسيل من أشداقهم. كانوا يتبادلون عبوة كحول محلّيّ ويدخّنون، ويغنّون ويضحكون ويصرخون، كما تصرخ ضباع شبقة، ليلتها ظلّ المطر يغسل كلّ شيء، الأرض، الجدران، الشجر، أعمدة النور، ويغسل أيضاً أجساد المسلّحين. خيل إلى أنّ أجسادهم تنفث الحبر على وقع كلّ قطرة مطر تسقط عليها، أمعنت النظر في الوجوه والأجساد ودققت فيها، لكن خاطراً آخر خطر على بالي في تلك اللحظة، وجدتني أقول في نفسي: «بشرتهم لا تنفث الحبر الأسود، بل الأمطار تصبغ كلّ شيء بالسواد».

أتذكّـر لحظتهـا أنّنـي شـاهدت الأمطـار تلطّـخ كلّ شـيء بالسـواد، وإن قلـت كلّ شـيء فأنـا أعنـي بذلـك حتـى أحلامـي ووجـوه أطفالـي وابتسـامات أبـي. فكّـرت لحظتهـا وانـا أشـاهد ثمالـة المسـلحين وهيسـتيريتهم تتعالـى... «مـاذا لـو تحـوّل الغيـث إلـى عـذاب؟! ألـم يكـن النـاس ينتظـرون أمطـار الرحمـة، فهطلـت عليهـم أمطـار قـذرة قتلـت كلّ شـيء جميـل فـي حياتهـم وأخرجـت الضبـاع مـن أوكارهـا؟!

حيـن وصلـتُ إلـى البيـت، كنـت أحمـل فـي يـدي حزمـة مـن الـورق ودزينـة مـن أقـلام الرصـاص، وجـدت رأسـي ومخيلتـي ممتلئيـن بالكثيـر والكثيـر، أردت أن أكتـب.. أصـرخ.. أحتـج، أردت أن أضـع بصمتـي علـى جبيـن هـذا العالـم، أردت أن يعـرف أبنائـي وبناتـي بعـد عقـد أو عقديـن مـن الآن بـأنّ أباهـم رفـض هـذه الحـرب، ورفـض كلّ هـذا الخـراب وعـرّى كلّ اللصـوص الذيـن ركبـوا موجـه الثـورة. ليلتهـا ودون أن أتخلّـى عـن بلـل ثيابي ولا عـن البـرد فـي أطرافـي، أمسـكت بالقلـم وبـدأت أكتـب وأكتـب، ولـم أتوقّـف عـن الكتابـة لثلاثـة أشـهر تاليـة، كنـت خلالهـا أرى الخـراب يكتسـح البـلاد، وأسـمع المـوت يجـوس خـلال الديـار، وارى بيـوت العـزاء تنصـب هنـا وهنـاك، وأرى جثـث الضحايـا ووجـوه اليتامـى تطفـو فـوق كلّ شـيء.

وجـدت فـي كتابتـي لروايتـي الأولـى «أمطـار سـوداء» مـلاذاً عزلنـي جزئيـاً عـن متابعـة مـا يجـرى، أتذكّـر أنّ أحـد الأصدقـاء عندمـا شـاهدني أكتـب وأكتـب متجاهـلاً نشـرات الأخبـار قـال لـي: البلـد تحتـرق، وأنـت تكتـب قصـص!!

مـا زلـت أتذكّـر كلماتـه، ومـا زلـت أتذكّـر أننـي لـم أردّ عليـه سـوى بابتسـامه، مازالـت تتكـرّر كلمـا تذكّـرت كلماتـه.

انتهيـت مـن الروايـة فـي يونيـو2011م، وكلّـيّ أمـل أن تخيـب ظنونـي التـي ضمنتهـا الروايـة، لـم أتحـدّث فـي روايتـي عـن اليمـن فقـط، بـل عـن

كلّ دول الربيع العربي، ولذلك آثرت أن أجعل مكان الرواية مبهماً غير مسمّى، وكذلك شخوص الرواية، على أمل أن تتجاوز الرواية حاجز «الزمكان» وأن تصل للقارئ العربي في بلدان الربيع العربي تحديداً، سهلة وسلسة، تحاكي واقعه المَعيش. أقحمتُ بطل الرواية الشاب «أمين» في أحداث الرواية دون أن أتطرّق إلى ماضيه أو جنسيته أو ذكرياته، لأجعل شخصيته غير مقيدة بأطر جامدة تقيد مخيلة القارئ، وجعلتها حرة لينة، بوسع القارئ تقمصها ومعايشة الحدث بمعيتها.

مرّرت الرواية بعد الانتهاء منها لبعض الأصدقاء (قرّاء وأدباء) وبدأت أستطلع الآراء، الحقّ يقال.. تفاجأت كثيراً من الإعجاب الذى لقيته الرواية على الرغم من أنّها التجربة الأولى لي في كتابة الرواية، كل ذلك لم يدفعني لنشر الرواية نشراً ورقياً أو إلكترونياً، وأعتقد أني كنت سأتعامل بالطريقة ذاتها التي تعاملت بها مع أعمالي السابقة، إلى أن شجعني أحد الأصدقاء على نشرها، وكان ذلك فعلا بأن تعاقدت مع دار الوطن المغربية لنشر الرواية، وبعد أن صدرت الرواية في نهاية 2012 لاقت صدى طيباً في أواسط القراء في اليمن وخارجه، دفعني ذلك النجاح لمواصلة الكتابة، فوجدت نفسي وبعد أشهر قليلة من صدور روايتي الأولى بدأت بالعمل على روايتي الثانية «ربيع الحنظل».

إجمالاً تعدّ تجربة كتابة الرواية الأولى، تجربة ذات حميميّة خاصة، لا يجد لها الكاتب مثيلاً في أعماله التالية، ربما لأنّه كتبها بماء القلب وأولاها عنايته كلّها، ربما لأنّه أفرغ بين صفحاتها مخيّلته العذراء، ربما لأنّها صرخته الأولى التي أطلقها في وجه هذا العالم الذي ينوء بجبال من الصمت والخيبات. ربّما لأنّ كلّ أوّل شيء في حياة الإنسان لا يمكن نسيانه على غرار الحبّ الأوّل!

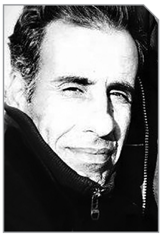

هذا العالم
حكاية بلا نهاية

جلال برجس *

بعد خمسة كتب في الشعر، والقصة، وأدب المكان، كتبت روايتي الأولى « مقصلة الحالم»، دون أن أدري أنني سأُتْبِعُها بروايات أخرى. ولم أفكر قبل ليلة الكتابة تلك، أن أضع اسمي على غلاف رواية يتداولها القراء. ليس فقط لأن الخوض في هكذا جنس أدبي غير ثابت، فيه كثير من الخطورة على كاتب أنفقَ زمناً في الاقتراب من الحرف فقط، بل كان اعتقادي أيضاً أنني لا أملك حكاية استثنائية تستحق أن تُسرد للقارئ. ولم أكن أعي أن حكاياتنا تراكم لهواجس تأخذ في تَلَبُّسِ صوف روحنا الداخلي منذ شهقة الولادة الأولى.

هنالك أحداث في حياتنا بحاجة لإصبع أن ينهرها، لتأخذ بالاشتعال، تماماً كسؤال يؤدّي إلى ضجيج لم يكن في قاعة كان الصمت يخيم

* شاعر وروائي أردني. درس هندسة الطيران وعمل في هذا المجال لعشرين عاماً، ثم انتقل بعد ذلك للعمل في الصحافة. كتب الشعر والرواية والقصة والمقالة النقدية والأدبية. له في الرواية: «مقصلة الحالم»، 2013، «أفاعي النار – حكاية العاشق علي بن محمود القصاد» التي فازت بجائزة كتارا للرواية العربية للعام 2015، عن فئة الرواية غير المنشورة.

على جبين اللحظة فيها. والذي حدث لي شيء أجده، وقت التفكر فيه، خارج سياق عيشي اليومي.

كانت الطائرة قد تسلقت درجَ الهواء، من مطار عمان الدولي. حينها كنت أراقب الأشياء كيف يتضاءل حجمها شيئاً فشيئاً، وكأنني أرى ما أرى لأول مرة. رحت أتأمل البيوت وصوت ما في دواخلي يذكّرني بأن في كل بيت حكاية. وحينما ابتعدت الطائرة إلى مُرتقى في السماء، وصارت المدن بحجم كف اليد، عاد الصوت يخبرني بأن تلك المدن فصول حكايات. وعندما بت لا أرى من المدن سوى طيفها البعيد، أيقنت أن البيوت شخوص، والمدن فصول، وأن هذا العالم حكاية بلا نهاية.

وحينما عدت من سفر كنت أتدبر فيه شؤون العزلة، وجدتني أسيرَ، مزاج غريب لم يحدث لي من قبل. كان الفصل همهمة أولى للشتاء، حيث قسوة اللحظة الواقعة ما بين مطر ولا مطر. غيوم رمادية تركض في السماء وتنثر، كمن يبذرون الأرض البور، دقيق الوحشة. كانت وحشة قاسية حدّ الرغبة في البكاء علناً.

في البيت وجدتني ألوذ بغرفتي، والشمس وراء الجبال الغربية لمدينتي «مادبا» تشد شعرها كأنها تحتج على شيء ما. وضعت رزمة ورق قبالتي على الطاولة، ورحت أصوب القلم نحو رأس الصفحة، كأني أنوي اغتيال شيء ما، مدفوعاً بشهوة عارمة للكتابة. وأي كتابة تلك التي يقف المصاب بها قبالة بياض الصفحة، كمن يقف في تقاطع تطرق، تسيل منه دروب عديدة.

ثمة شيء كان يسحبني من ياقة روحي نحو كتابته. نثرت كثيراً من الكلمات والعبارات المبتورة في صفحات بقيت أمزقها، وأستعيض

بها عن غيرها، إلى أن رحت أحس بجدران الغرفة تمشي نحوي وأنا أقاسي الاختناق. حينها حملت حقيبة اعتدت استخدامها، ضمت كثيراً من مقتنياتي التي تهمني، وخرجت ميمماً شَطرَ جبل « نيبو»، كما أفعل دوماً.

في الطريق التي تمر بين حقول تنتظر الشتاء، وأشجار تهتز أبدانها قبالة ريح خفيفة كأناس يتمايلون طرباً لرتم موسيقي آسر، ثمة وجوه كانت تتقاطع في مخيلتي، وأصوات تئن قرب مسامعي، وأياد خفية تلمس بدني. صعدت السيارة طريقاً متعرجة قادتني نحو قمة الجبل. أطفأت محرك السيارة، وحملت حقيبتي وفي النفس رغبة لكأس من الشاي يخالطه عبق الحطب وهو يحترق انصياعاً لألسنة النار. جلست على صخرة، وأمامي الغور حيث يركض نهر الأردن نحو البحر الميت، كجرح في باطن الكف. ومن ورائه فلسطين راية لم يمزقها عواء الريح رغم كل تلك السنين من العذابات.

مرة واحدة شجَّ جبينَ السماء برقٌ أسطوري، وانفجر رعد كبير، وبُتِر من بطن السماء شريان، فأتى المطر على كفي عاصفة هوجاء. حينها بت لا أرى في ضباب ذاك المطر شيئاً، والسيارة بعيدة عني، وعجلاتها لا محالة ستكون قد غارت في الوحل المفاجئ. تذكرت أنّ في بطن الجبل كهفاً صغيراً، فرحت أركض نحوه وقدماي تقاسي الانزلاقات إلى أن وصلت وعبرت إلى داخله، بينما الدنيا خارج ذلك الملاذ الصخري تحتفي بجنونها، بروقاً ورعوداً وأمطاراً.

وجدتني داخل الكف أتقاطر ماء، وأعيش لحظة ارتباك جميل. كنت أنوي أن أمكث لدقائق في الكهف إلى أن يتراجع جنود العاصفة، لكنها ما تراجعت بكل تلك السهولة التي اعتقدها، فرحت أخلص الكهف مما فيه من حجارة، وأبقيت على جذوع

أشـجار ناشـفة، وأعـواد وجدتهـا هنـاك. لممـت شـمل الحطـب، وأشـعلت فـي بدنـه النـار، وأخرجـت مـن حقيبتـي، رفيقتـي، بطانيـة وافترشـتها، ثـم وضعـت إبريـق الشـاي الصغيـر علـى أنامـل الجمـر الـذي لـم يؤخـر غليانـه كثيـراً، فكان الشـاي والنـار، وإنـارات فلسـطين قبالتـي عبـر بوابـة المـلاذ التـي تحالفـت خيـوط المـاء عليهـا فيمـا بعـد، لتلتئـم فصـارت مـرآةً وجدتنـي فيهـا كامـلاً دون نقصـان. حينهـا ضغطـت علـى زر التشـغيل فـي حاسـوبي النقـال الصغيـر، ورحـت أكتبنـي لعلنـي أولـد مـرة ثانيـة. فـي تلـك الليلـة غافلنـي الوقـت وبقيـت حتـى الصبـاح، وإذا بالجبـل مكسـو بالثلـج ومعـي فصـلان مـن روايتـي، كتبـت نصفهـا فـي الحاسـوب، والآخـر فـي دفتـر كان بمعيتـي.

بعـد أسـابيع عـدت للكهـف لأننـي وجدتنـي غيـر قـادر علـى إتمـام الروايـة التـي مـا كان بنيتهـا كتابتهـا، إلّا هنـاك، حيث حـدث لـي أن رأيتني، وقلـتُ كلمتـي حيـال عالـم مـا عـاد السـجن فيـه ذلـك السـجن المـادي فقـط، بـل استنسـخت لنـا أيـادي العبـث، أشـكالاً عديـدةً للسـجون، ومقاصـلَ شـبقةً فـي اغتيـال الأحـلام والحالميـن.

هكذا ولدت «ليل»..

جورج يرَق *

عندما غدا «فيسبوك» حديث الناس، قررتُ أن أكتب روايةً مستوحاةً من هذا الموقع الاجتماعيّ. لم أكن أعرف شيئاً عنه إلّا اسمه وتوفيره فرصة لإعادة إحياء صلات صداقة وقربى مفقودة. والأهمّ سهولة التعرّف بالنساء. أنشأت فيه حساباً باسم مستعار وبدأت التجربة وسرعان ما عثرتُ على فكرة الرواية. أمسك عن كشف تفاصيلها مخافة أن تُقرصن. واتّفق أنّ الملحق الثقافي التابع لجريدة «النهار» اللبنانية كان يعدّ عدداً ممتازاً عن عالم التواصل الافتراضي، فطلب إليّ مديره الشاعر عقل العويط الذي كان على بيّنة من مشروع الرواية، أن أساهم بفصل منها في العدد العتيد. وهكذا كان.

---

* كاتب وروائيّ لبناني من مواليد (1958)، مارس العمل الصحافي لعقود، عمل محرّراً وسكرتير تحرير وكاتباً حرّاً في صحف ومجلات لبنانية عدة، توجّه مؤخّراً لكتابة الرواية، صدرت روايته الأولى «ليل» في العام 2013. واختيرت روايته الثانية «حارس الموتى» ضمن القائمة القصيرة لجائزة البوكر العربية 2016م.

صدر الملحق مطلع 2010 متضمّناً الفصل الذي حمل عنوان «خمس حيوات على الفيسبوك» وذيّلته عبارة «فصل من رواية ستصدر قريباً». نال الفصل استحساناً غير اعتياديّ بعدما تناقلته بضعة مواقع على الإنترنت. وراح أصحاب وقرّاء يسألونني كلّما التقينا متى ستصدر الرواية. وجوابي على الدوام: «قريباً». هذا الوعد استأخرت الإيفاء به حتى ربيع 2012 عندما استأجرت شاليه يُطلُّ على البحر من الطبقة العاشرة. تعمّدت الاستغناء عن كلّ ما قد يحول دون انصرافي التام عن الكتابة والقراءة. فلا تلفزيون. ولا خدمة إنترنت. ولا حتى راديو.

بنيت الحبكة على خمس شخصيات نسائية، وبدأت الكتابة. أكتب نحو ألف كلمة يومياً. وإذ وصلت إلى الشخصية الثالثة، وهي السيّدة العمياء، وجدت أنّها وحدها تستحقّ رواية بعدما تدفّقت علي أفكار كثيرة تتعلق بهذه الشخصية الخصبة. للحال، توقفت عن استكمال الرواية بعدما أنجزت نحو ثلثها، ورحت أبحث عن فكرة رواية جديدة تكون بطلتها كفيفة. استقدمت مقاتلاً مسيحياً وفتحت من خلاله نافذة على الحرب اللبنانية وعلى الواقع المستجدّ لأضفي على السرد طابعاً محلياً.

اخترت المقاتل من حزب القوات اللبنانية لسببين، الأوّل لأنّه حزب اعتُقل رئيسه واضطُهد المنتسبون إليه وزُجّ بهم في السجون، والسبب الثاني أنّ الرواية اللبنانية تطرّقت إلى الحرب من وجهة نظر يسارية وإسلامية وفلسطينية، وعليه ارتأيت أن آتي الحرب من الزاوية المسيحية.

وكان لا بد من الاستعانة بالذاكرة لبناء شخصية الراوي. فأنا لم أكن مقاتلاً. لكنّي عرفت مقاتلين كثراً، من بينهم شاب مثقف

عمل في مجال الاستخبارات. تعرّفت به بُعيد انتهاء مرحلة الحرب، وتوطدت علاقتي به بعدما دقّقت لغوياً أطروحة له أعدّها لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة. من الشذرات التي كنت ألتقطها من مرويّاته في خلال نشاطه الأمنيّ، استوحيت الكثير ممّا تضمّنته الرواية. حتى ملامح الراوي استمددتها منه. للمناسبة، إنّه يعرف ما فعلت ولطالما تباهى في حضور أصدقاء مشتركين بأنّ لدى بطل «ليل» شيئاً منه.

جعلتُ الراوي يختبئ في دير للرهبان هرباً من الملاحقة التي كان يقودها وقتذاك النظام الأمنيّ اللبنانيّ- السوريّ. في الدير، قرأ فتثقّف واستطاع أن يحوز شهادةً جامعيةً. وغادره بعدما أمضى أحد عشر عاماً على أثر خروج زعيم حزبه من المعتقل حيث أمضى هو أيضاً المدة نفسها. حصل ذلك نتيجة تبدّل المعادلة السياسية عقب اغتيال رئيس الحكومة رفيق الحريري.

وقد أخرجتُه من الدير ليقيم علاقة بسيّدة كفيفة تعرّف بها عبر الفيسبوك. جعلتُ هذه السيدة ميسورة ومتفائلة ومُحبّة للحياة برغم فقدانها البصر بعد بلوغها الأربعين. حاولت من خلالها القول إنّ الإنسان مفطور على التعلّق بالأمل مهما تكن الظروف. وأضأتُ من خلالها أيضاً على الصلات السائدة بين ثلة من السيدات المنتميات إلى الطبقة الثرية، والعادات المُرافقة لتلك الصلات.

حالما أنجزتُ الكتابة الأولى ثمّ التدقيق ثمّ طبعها مرة ثانية على الورق تسهيلاً للقراءة، شئتُ أن أصدرها في شهر أيار/ مايو، فاتّصلتُ بدار الساقي التي تربطني بها مودّة عمرها خمسة أعوام، هي المدّة التي عملت فيها لحسابها مدققاً

وأحياناً قارئاً للمخطوطات ومُبدياً الرأي في مستواها، اتّصلت بالدار وأرسلت النصّ عبر الإنترنت ثمّ للحال أرسلتْه مديرة التحرير

إلى أحد المدقّقين، فهذه الخطوة الأولى في الطريق إلى النشر. لكن حين علمتُ أنّ موعد الإصدار في كانون الأول/ ديسمبر، وتحديداً مع افتتاح معرض الكتاب العربي والدولي، اعتذرتُ إلى الدار، وقرّرت الطبع على نفقتي.

إذ ذاك، بات لزاماً عليّ تولّي إخراج الغلاف وسائر التوابع التي كان مفترضاً أن تتولّاها الدار. أنفقت بضع ليالٍ بحثاً في لوحة تناسب موضوع الرواية. زرت عدداً كبيراً من المواقع المتخصّصة على الشبكة العنكبوتية ولم أعثر على شيء مُرضٍ. وبطريق المصادفة، وجدتُ ضالّتي لدى سلفادور دالي، لوحة من مجموعة محورها فتاة تنظر من النافذة إلى البحر وقد رُسمت من الخلف. من المجموعة، وهي من بواكير الفنان الإيطالي، اخترتُ واحدة من أكثر اللوحات احتشاماً. وتصدّرت غلاف الطبعة الأولى. وقد أصدرتُ الرواية عن دار «مختارات» كي يُتاح ترشيحها للجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر 2013). علماً أنّ الطبعة الثانية منها خرجت في منتصف الصيف الفائت عن «منشورات ضفاف»، منقحةً وتصدّرت غلافها لوحة لجورج دي لاتور.

اخترت «ليل» عنواناً بعد غربلة بضعة عناوين، منها «السيدة التي أحبت بشير»، وبشير هو الرئيس اللبناني بشير الجميل الذي قضى اغتيالاً، و»أعجوبة الأبونا سمعان» من وحي حادثة حصلت مع البطلة أيام الطفولة. رسا اختياري على «ليل» لتضمنّه ثلاثَ دلالاتٍ معبّرةٍ جداً عن الرواية، هي ليل الحرب والقتل والموت، وليل مستقبل البلاد المجهول، والليل الذي تعيشه الشخصية الأساسية عقب فقدان نظرها.

وبرغم الحرص على أن يأتي النصّ مُنزّهاً من الأخطاء المطبعية، فقد عثرتُ على عدد كبير منها. وهذا ما أزعجني وأكّد لي صحّة

المقولـة التـي لطالمـا رددتُهـا، وهـي «الكاتـب عـدو نصّـه». لكنـي لـم أتعلّـم مـن هـذه التجربـة، إذ شـابت روايتـي الثانيـة «حـارس الموتـى» بضـع غلطـات مطبعيـة. حـدث هـذا مـع أنّـي كنـت قـرّرت إسـناد مهمّـة مراجعـة الروايـة إلـى قـارئ آخـر قبـل تسـليم المخطوطـة إلـى الناشـر. المشـكلة أنّ الناشـر يطمئـنّ إلـى النـصّ الـذي أرسـله إليـه فـلا يحيلـه علـى المصحّـح لـدى الـدار كـي يعاملـه هـذا علـى جـري معاملتـه سـائر النصـوص.

ثقـة غاليـة المدقّقيـن بمـدى اعتنائـي باللغـة تجعلهـم يتريّثـون قبـل تخطئتـي، وأنـا لا أنفـكّ أكـرر علـى الـدوام: «كلنـا نخطـئ. لا أحـد معصومـاً مـن الخطـأ» متـى شـئت تعزيـة كاتـبٍ ارتكـب أخطـاءً فادحـةً في نصّـه. قبـل شـهرين صـدرت الطبعـة الثانيـة مـن «ليـل» تفاديـتُ قراءتهـا لأنّ العثـور علـى غلطـة واحـدة يزعجنـي جـداً. آمـل أن تكـون خاليـةً مـن الأخطـاء بعـد الجهـد المضنـي الـذي بذلتـه فـي سـبيل ذلـك.

قوبلـت «ليـل» عقـب الصـدور ببضـع مقـالات مُرحّبـة. للمثـال، عدّهـا الناقـد اللبنانـي عبـده وازن «روايـة بديعـة» فـي مقـال نُشـر فـي جريـدة «الحيـاة». وأشـادت جريـدة «النهـار» فـي مقـال كتبـه الشـاعر عقـل العويط ولـم يوقّعـه، بلغتهـا الأنيقـة وسـردها الشـائق. وبرغـم النقـد الإيجابـيّ، لم أتوقّـع بلوغهـا أيـة قائمـة مـن قوائـم الجوائـز التـي رشّـحتها لهـا، لأسـباب لا تخفـى علـى القـارئ. خصوصـاً إذا قـرأ الطبعـة الأولـى مـن الروايـة.

هكـذا ولـدت «ليـل». وبعـد مضـي ثـلاث سـنوات علـى ولادتهـا، لـم تـزل فـي عـداد أكثـر الكتـب مبيعـاً فـي مكتبـات بيـروت.

«سمراويت».. والبحث عن الهوية الضائعة

حجّي جابر *

قبل أكثر من عقد من الزمان اتّجهتُ مساء صوب مبنى القنصلية الإرتريّة في جدّة للمرّة الأولى طوال إقامتي في السعودية. كان الأمر مربكاً للغاية، كنتُ كمن يغادر مكانه المريح إلى آخر لا يعلم تماماً كيف سيكون شكله. لم يكن مشواراً عادياً، كان تغييراً كبيراً، أو هكذا توقّعت.

حين دلفتُ إلى الساحة المحاطة بأسوار عالية وجدتُ الباب يفصل بين عالمين؛ عالم جاف متعكّر في الخارج وآخر مختلف في الداخل، حيث الموسيقى والصبيات الأنيقات يتجولنّ دون أن يثير وجودهنّ أي اضطراب جماعيّ أو فرديّ. أحببتُ كوني لم أثر انتباه أحد، كان ذلك مؤشراً لكوني لا أبدو مختلفاً. تقدمتُ قليلاً

* روائيّ وإعلاميّ إرتريّ. نشر ثلاث روايات حتّى الآن: «سمراويت»، «مَرْسى فاطمة»، «لعبة المغزل». فازت روايته الأولى «سمراويت» بجائزة الشارقة للإبداع الروائي - الإصدار الأوّل. اختيرت روايته «لعبة المغزل» ضمن اللائحة الطويلة لجائزة الشيخ زايد.

وأنا أنقّل بصري في المكان، كنت أبحث عن وجهة أولى داخل هذا المكان، وجهة تصلح مفتتحاً لهذا القرار، حتى وجدتها أخيراً. رأيت مجموعة تتحلّق حول شابّ يعزف على البيانو. من بعيد أخذ صوت الموسيقى يتسلّل إليّ، وكلما اقتربتُ ازداد وصولاً إليّ. ثمّة ألفة غريبة جمعتني بهذا اللحن، هذا أسعدني للغاية. حين وصلت لم يلفت ذلك انتباههم، كان ذلك يعني أيضاً أني مثلهم تماماً. لكن الأهم أني تعرّفتُ على اللحن، كنت قد سمعته مرات كثيراً. حاولتُ تذكّر الأغنية دون جدوى، وفي النهاية اكتفيت بنصف المعرفة هذه ووجدتها أكثر من كافية لأصرخ بها على الملأ: «أنا أعرف الأغنية بس ناسي اسم الفنان».

ما حدث أن العازف توقّف عن العزف والشباب غرقوا في ضحك هستيري، وعرفتُ أن اللحن لم يكن سوى النشيد الوطني الإرتري.

قبل هذا الموقف بثلاثة عقود كنتُ رفقة عائلتي نعبر البحر الأحمر على عجل تحت القصف من مدينتي الساحلية مصوّع صوب مدينة جدة. هناك كبرتُ وبدأتُ تشرّب الحالة الجداوية، لهجة وسلوكاً وطباعاً، حتى أصبحتُ آخر المطاف جدّاوياً جداً دون أن تربطني أي علاقة بالمدينة التي غادرتها مصوّع. أصبحتُ أحفظ السلام الملكي السعودي، وأطرب لطلال مدّاح وعبادي الجوهر، وأشجع الأهلي. هذا لم يكن حالي فقط، فمعظم أقراني الإرتريين كانوا مثلي سعوديين قبل أي شيء آخر. هذا الأمر استمرّ حتى تأريخ أستطيع الإشارة إليه كموعد لبدء تبدّل الأحوال، إنها حرب الخليج الثانية، حين غزا العراق الكويت. هنا حصل الانتباه لدى السعوديين وعموم الخليج بهويتهم في مقابل الهويات الأخرى، وأصبحنا نحن، الغارقين في الهوية السعودية، بدءاً من ذلك التأريخ أصحاب مسمى

جديد هو «الأجانب». أصبحتُ أسمع هذه المفردة بشكل شبه يومي في المدرسة. كل قرار إداري كان ينقسم إلى قسم يخص المواطنين، وآخر يخصنا نحن الأجانب. لهذا كنا نقف أو نجلس أو نصطفّ يميناً أو يساراً فقط كي نتمايز عن أصحاب البلد، وما كان يميّزنا شيء لا على مستوى الحديث أو طريقة اللباس.

تسارعتْ وتيرة تمييزنا حتى ترسّختْ القناعة لديّ أنني وبشكل كامل أصبحتُ شخصاً آخرَ لا ينتمي إلى جدة التي ما عرفتُ مدينة غيرها. لهذا جاء القرار أخيراً بالبحث عن هويتي الضائعة، بالعودة إلى جذوري كإرتري غادر موطنه صغيراً بفعل الحرب، والحرب فقط. وكان المشهد الذي استفتحتُ به شهادتي هذه هو أول خطوة نحو العودة إلى الوطن الأم. وهو وإن بدا مخيّباً للآمال فإني واصلتُ رحلة حقن أشيائي بكل ما يخصّ إرتريا، فحلّ النشيد الوطني الإرتري الذي حفظته أخيراً محل السلام الملكي السعودي، وجاء المطرب إدريس محمد علي في مكان طلال وعبادي، غير أني لم أستطع العدول عن تشجيع النادي الأهلي لأني لم أجد في إرتريا ما يقابله، فكل فريق أو منتخب يتم تشكيله كان يهرب من البلاد في أول فرصة لمشاركة خارجية

تُوّج هذا الامتلاء المتعمّد بأول زيارة لي إلى أسمرا في العام ألفين وعشرة. حينها عدتُ ممتلئاً بمشاعر متناقضة. لم يكن سهلاً اختبار العديد من المفردات التي كنت أعتقد أني أعرفها. هناك لمستُ المعنى الأول لفكرة الحياة في بلادي، وليس في بلاد الآخرين كما فعلتُ على الدوام. هناك جربتُ أن أصرخ بملء صوتي دون أن أخشى ملامة أحد. لكن ومع هذا فقد عدتُ بخيبة أمل غير متوقعة. إرتريا لم تكن تشبهني أبداً، لغة وملابس وأسلوب

حياة. كنت الكائن الأكثر غرابةً ونشوزاً في شوارع أسمرا، ولم يكن السكّان هناك يفوّتون فرصة لتذكيري أنّي شخص مختلف. لم أكن في نظرهم سوى سعوديّ اقتطع وقتاً لزيارتهم.

بمجرد عودتي محتشداً بهذه المشاعر كتبتُ روايتي الأولى «سمراويت»، وهو عمل عكس حال اضطراب وتشظي الهوية التي كنتُ أعيشها. كان قرار الابتعاد عن السعودية حاضراً لكني في المقابل لم أجد إرتريا، فأصبحتُ معلّقاً بين وطنين دون القدرة على الالتجاء لأحدهما.

كتبتُ «سمراويت» في غرفة الأخبار، في ذروة أحداث الربيع العربي، بين الخبر والخبر، والموت والموت. الآن حين أعود بذاكرتي لتلك الأيام لا أعلم بالضبط كم تسلل إليها من تلك الأجواء الساخنة، لكنّ الأكيد أنها كُتبت بصدق عزّ استحضاره بعد ذلك.

وجدتْ «سمراويت» بعض القبول لأنّها تقاطعتْ مع حالة كثيرين، فوجئتُ بشساعة الأماكن المؤقتة على حساب الدائمة، بأفواج العالقين في الأوطان البديلة ينتظرون التفاتة من الوطن الأم، بالهائمين على وجوههم دون وجهة أخيرة. تغيّرتْ أمور كثيرة لكني بقيتُ على حالي، تُمثّلني «سمراويت» دائماً، أسافر من بلاد الآخرين إلى بلاد آخرين، ولا وطن في الطريق.

الظلّ لا صوت له..

دُنى غالي *

أول التسعينيّات

النصف الأول من العام – البصرة

الخروج من المدينة إثر قمع انتفاضة الجنوب، مروراً بالجثث التي تمّ إعدامها وقرار منع رفعها في دوار الشارع الأول من البيت، يرافقها هلع استجوابات المفارز التي لم نعرف هويتها كل عشرة أمتار، في جوٍ علقت به رائحة البارود.

النصف الثاني من العام – كوبنهاجن:

حطّ الرحال؛ أجواء إسكندنافية ساكنة، ودكنة شديدة الخصوصية.

---

* روائية ومترجمة عراقية مقيمة في الدنمارك، لها: «النقطة الأبعد»، «عندما تستيقظ الرائحة» ورواية «منازل الوحشة»، «لا تقصصي القصص يوم الأربعاء»، «بطنها المأوى». كما صدر لها مجاميع نصوص نثرية وشعرية أيضاً. أصدرت باللغة الدنماركية رواية ومجموعتي نصوص نثرية وشعرية، إضافة إلى ترجمات أدبية من اللغة الدنماركية.

يكشف ضوء العتمة عن فوضى لا مثيل لها؛ صفاء مضاعف في الرؤية تأتى من التضادات ابنة وقتها. اصطدام بأذهان لا تعقيد في طرحها للفكرة أو في صياغة سؤال؛ بساطة متناهية قابلها غموض ومتاهة داخل أدمغتنا المتعبة، حيرة وتأتأة في تكوين جملة بسيطة.

حتى أواخر التسعينيّات:

تتوالى الاكتشافات المتأخرة بفعل الانزياح. الانتقالة الكبرى دفعت إلى التمرن الجواني من أجل النجاح في صف كلمات مترابطة، والتدرّب على نطقها، ولكن من دون صوت!

الظلّ لا صوت له ولكنّه الخزانة والمنهل الذي يرافق كل منا، يحتشد بالأفكار والنصوص المعدة لمرافعات وهمية.

من هنا بدأت الحكاية، لحظة الانتباهة الأولى إلى الظل، وإن انحسرت الشمس. التضاد بين الحشود الغفيرة وقيادتها من خلفي هناك، والأفراد الطلقاء هنا أفرز تلك المساحة المشروعة من الفراغ خاصتي. والحديث ليس عن حصول امرأة أخيراً على حقّ ما إطلاقاً.

وفي لحظة اطمئنان تدافعت أوجهي التي لا أعرفها، مع شخوص لها ارتباط، ولا شكّ بي، لتوكل إليّ بمهمة العناية بـ«القلوب التي بلغت الحناجر»، بينما الأعين جميعها اشتركت في النظر صوب نقطة. لتصدر حكاية «النقطة الأبعد» في العام 2000، دار المدى. دمشق.

النصوص الأولى التي صدرت في أول كتاب لي «حرب نامة» في العام 1998 من إصدار دار المدى، كانت من ضمن المران الذي بدأته أول وصولي لاجتياز أزمة الانتقالة. احتشدت الصور وازدحمت المخيلة. طال الانتظار بسبب العراقيل الأولى

من أجل التأقلم وكانت لصالح النص قبل صدوره، ولكن رغم ذلك لم يخل الكتاب من الانفعال، حتى أنني لم أرجع إلى هذه المجموعة، برغم أنها كتابي الأول بنبضه السريع ودمه الحار وصوره المتقدة، وقد كان بالفعل بمثابة كتاب حرب أو يوميات حرب جمعتُ فيها صوراً عشتها على مدى سنوات الحرب واستعرت عبرها لسان نساء كنت على مقربة منهم. لم أكن واعية لما كتبت ولم أعرّف شيئاً.

لم أكن أريد إلا أن أكتب طالما كنت بمنجى عن السلطة التي اعتمدت في سياستها البطش والعنف. المختصون في الأدب هم الذين كتبوا إلي ينصحونني في خوض غمار الرواية من دون تردد فالجملة التي كتبتها كانت روائية. أسعدني ذلك. الملاحظة اختصرت الطريق علي بظني، ولاسيما أني قد بدأت بالشعر أولاً وخشيته لأنّ «الصغار» لا يجب أن يكتبوا الشعر. هذا ما كان الوسط الذي نشأت فيه يوصي به وهو وسط أدبي فني. ليس الشعر حسب، إنما التأني في الكتابة خوفاً من الإخفاق، تلافياً للأخطاء واستكمالاً للتجربة.

لا غبار على اتفاق الجميع حول أهمية النصيحة هذه. لكني لمست العكس في الجانب الآخر من العالم فلا سبيل للتقدم إن لم تكتب وتواصل إن توفرت الموهبة، فالكتابة تدرّس في مدارس هنا يتخرج منها شابات كاتبات وشباب كتّاب، وخلال فترة الدراسة يتلقى الطالب عصارة خبرة أستاذ مارس الكتابة لمدة لا تقل عن 10-15 سنة.

من ناحية أخرى فلا يمكن تجاوز الأخطاء ونجاح كتاب يصدر لنا اليوم لا يعني نجاح كتابنا القادم، ببساطة.

الآن وبعد مرور ما يزيد على الخمس عشرة سنة حدث بتصوري تغيير بشأن هذه المفاهيم في أوطاننا، ومن جهة أخرى دخل سوق الكتاب الاقتصاد كسلعة أسوة بالسوق الغربي الذي تحكمه مقاييس أخرى.

النقطة الأبعد كانت روايتي الأولى وفيها لهاث ثلاثة من الأساتذة الأكاديميين، في مقتبل العمر وسط مرحلة متأزمة وضمن مجتمع تمزقت فيه الطبقة الوسطى وعليه اقتضت الحياة أن يمتلكوا أدوات إضافية تعينهم في تدبر حياتهم. أصوات زوجاتهم أعلى بكثير وهم يؤخذون بجريرة المجتمع والنظام السياسي الذي كان قائماً.

كنت أكتب بوهم الاقتراب من النقطة الأبعد التي كانوا يرومون الوصول إليها، لربما لتضمن لهم الانعتاق التام أو استحصال حالة من الأمان سواء بالاستسلام أو التمرد. الطريق خلالها كان سالكاً مرة ووعراً في مرات أخرى. لكن هذا الوهم حقق نشوة وسعادة لا متناهية خلال مراحل كتابة الرواية.

وفي مقابلتي لكاتبة دنماركية قديرة قمت بترجمة عملين لها بعد سنوات من إقامتي في الدنمارك، وجدت نفسي أحدّثها عن مخاوفي بشأن الثيمة التي وكأنها تُفرض علي كلما شرعت بكتابة عمل جديد ألا وهي الحرب، فالثلاثة في «النقطة الأبعد» كانوا ولادة «حرب نامة» وعندما تركتهم في العراق وغادرت، لاحقني ثلاثة منهم إلى الدنمارك في عندما «تستيقظ الرائحة».

وإن كنت قد تجاوزتهم في «منازل الوحشة» وعملي الروائي الأخير- لم يصدر بعد- فلم أستطع أن أتجاوز موضوعة الحرب في كل منهما. ابتسمت الكاتبة مدركة تماماً ما أعني وأخذت بتعداد كتّاب ما بين الحربين وكتاب ما بعد الحرب العالمية الثانية الذين

لـم يكتبـوا طيلـة سـنوات إنتاجهـم عـن مـادة سـوى الحـرب التي عاشـوها وظلـت أجواؤهـا مهيمنـة ملازمـة لهـم باقـي حياتهـم.

ولأن عالـم الروايـة بحاجـة إلـى سـكوت وتعمق فـي التفكيـر، ومواصلة فـي العمـل ولملمـة خيـوط لا حصـر لهـا، لـذا يهمنـي فـي النهايـة أن أعود إلـى المسـاحة الخاصـة بـي التـي بـتّ أرعاهـا، مسـاحة مقترنـة بهـدوء الطبيعـة ومهادنتهـا هنـا، والتـي تتيـح للفـرد الإنصـات جيـداً إلـى مـا يـدور سـواء فـي الداخـل أو إلـى مـا حولـه. بفضـل هـذه المسـاحة تنبهـت إلـى ذلـك الظـل الأميـن الجـريء الوحيـد والغريـب والمقصـي، الناكـر لمعرفتـه واعترافـه بـكل مـا يـدور مـن حولـه.

كنتُ سمكة سلمون صغيرة.. كيف أروي تلك الحكاية؟

رزان نعيم المغربيّ *

بعد شهور طويلة أجلس بكلّ حماس هذه المرة لأكتب شهادتي عن روايتي الأولى «الهجرة على مدار الحمل». لقد تكلفت وقتاً ليس هيّناً للتخلّص من مشاعر ربّما تبدو مترفة، حتّى أتمكّن من استعادة مناخ مضى عليه اليوم ما يقارب ثمانية عشر عاماً وقد بلغ سنّ الرشد، وانفصل عنّي أو كاد.

حين طُلبت منّي الشهادة لامسني شعور من يريد حبسي في تلك اللحظة، والتي تكرّرت مرّات بعد كلّ إصدار جديد، حينما وضعت يدي على غلاف الرواية الأزرق، وكانت النسخة قد وصلتني بالبريد وأتذكر كيف نظرت إليها أول مرة، لم أحتضنها ولم أصفّق فرحاً، بل وضعتها على الطاولة وكتبتُ مقالاً بعنوان «الحبل السرّيّ للرواية»، بعد

* روائية ليبيّة مقيمة في هولندا، تحمل بكالوريوس تجارة من جامعة دمشق، صدرت روايتها «نساء الريح» عن دار ثقافة، منشورات الاختلاف 2010، واختيرت ضمن القائمة الطويلة لجائزة البوكر العربية سنة 2011م.

أن داهمني ما يشبه اكتئاب ما بعد الولادة، أو قريباً منه، كان حزناً غامضاً ومؤرقاً يحتلّ كلّ مشاعري لم أفهمه، وحتّى في مرحلة لاحقة مع رواية ثانية، أدركت الفرق بين صدور مجموعة قصصيّة ونشر رواية.

قبل الرواية الأولى وبعدها نشرت عدداً من المجموعات القصصيّة والتي غالباً ما كانت تنشر في الصحف والدوريات ويصلني بشكل فوريّ ومباشر صداها. القصّة القصيرة ليست نمطاً هيّناً بل فيها تحدّ جميل ودائم، إلا أنّها عمل يكتب دفعة واحدة تحت تأثير اللحظة الملهمة.

بدأت الآن أدرك سرّ ذلك الشعور الحزين الغامض مع صدور عمل روائيّ، وهو الزمن؛ الوقت الذي يستغرقني بحثاً عن الفكرة وكيف أوثّق مصادر لها، ثم الوقت حين أنحت الشخصيات حتّى تتبلور لها ملامح وأسماء، بل عالمها الكامل.. أركض وراءها ثمّ نتبادل الأدوار فتطاردني في كلّ مكان. هذه العوالم تستغرق زمنا يطول أحياناً. بدأت أعدّ لروايتي الأولى وأنسجها منذ عام 1998 ونشرت في 2004م، ذلك الوقت يصبح النصّ ملكي الشخصيّ ومن ثمّ يولد وأتركه لمصيره.

موضوع هذا النصّ كان الهاجس الحقيقيّ والشخصيّ، كان نصّاً جديداً ومختلفاً في المنجز الروائيّ الليبيّ، فهو يتناول مرحلة تاريخيّة امتدت لما يقارب مئة عام، إلا أنّ جرعة التاريخ تبلورت في العلاقات الاجتماعية التي أثّرت على بنية المجتمع الليبيّ، وهو الذي عرف بهجرات أبنائه أثناء الاحتلال الإيطاليّ. في تلك الفترة كنت أراقب خصوصية ليبيا؛ حيث عدد سكانها لا يتناسب مع مساحتها، وغياب الحديث عن الراهن في الرواية الليبية المعاصرة، وعدم مقاربة بنية العلاقات الاجتماعية حتّى لا تصدم بالسياسيّ كما أظنّ، لهذا انحسر المنجز الروائيّ، وكما وضّحت في دراسة ـ شكّل السرد عموما

فضيحة الكشف، فغلب الشعر على المشهد الإبداعيّ الليبيّ لما فيه من رمزية آمنة، بينما كنت أرى أنّ ليبيا التي أعرفها بتفاصيلها وموروثها وعاداتها وتقاليدها غائبة عن مجمل الأعمال السردية.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أعمال المبدع الكبير إبراهيم الكوني الذي اتّسمت أعماله بخصوصية وتفرّد ليبيّ وعربيّ، معظم أعماله تحكي عن بيئة الطوارق التي ينتمي إليها. فيما اتّسمت أعمال الروائيّ الكبير أحمد إبراهيم الفقيه بأثر الاغتراب عليه وهو شبه مغترب. أمّا الروائي الثالث الغائب عربيّاً خليفة حسين مصطفى، وكلّ أعماله الروائية عن مدينة طرابلس ولكن قبل الخمسينيّات، كنت أراه نجيب محفوظ ليبيا.

لا أستطيع الحديث عن روايتي الأولى من دون وضعها في سياق المنجز الليبيّ، ولهذا كنت منحازة لموضوع أبناء المهاجرين الليبيين الأوائل إلى بلاد الشام ومن ثمّ عودة الجيل الثاني والثالث، بينما دفن الآباء في أرض الشام، كانت الصورة تتمايل في ذهني مع هجرة أسماك السلمون، يهاجر السمك الكبير ويتكاثر في مناطق بعيدة عن مكان عيشه الطبيعيّ وحين يطمئنّ إلى أنّه أدّى واجبه وحفظ نسله يموت هناك وتعود أسماك السلمون الصغيرة في هجرة عكسيّة وتعرف طريقها بحاسّة ربما حيّرت العلماء حتّى الآن.

الصورة كانت شبه مطابقة لما حدث مع الليبيّين المهاجرين إلى الشام فقط، بينما المهاجرون إلى مصر وتونس كانت لهم خصوصية مختلفة، بل حتّى المجتمع الليبيّ منحهم صفة عنصريّة تولّدت نتيجة الانغلاق لفترة تاريخية، ومع استقلال ليبيا واكتشاف النفط، تضخّمت تلك المشاعر اجتماعيّاً وليس رسميّاً، بأنّهم العائدون، وهذا ما يطلق عليهم بمعنى الأقلّ وطنية، وهم الطامعون بليبيا

الجديدة الغنية، بل أصبحت تهمة تقارب الشتيمة لمن لا يعجبهم سلوكه، بينما رسمياً كانت الحكومات المتعاقبة منذ استلام الملك السنوسيّ للحكم تطالب بعودة الخبرات الليبية التي تعيش في الخارج لتكون داعماً للتنمية.

كنتُ سمكة سلمون صغيرة، كيف أروي تلك الحكاية؟ هل كنت أبحث عن الانتماء الملتبس في هويّتي أم أحاول تصحيح مفهوم ملتبس عن الأجداد المهاجرين؟ برغم أنّ الذين عادوا من دمشق أو سوريا لم تكن صفة «عائدون» تخصّهم في ليبيا، بل كانوا يُرجعون إليهم الفضل في المساهمة ببناء ليبيا الحديثة، كانوا روّاداً في مجالات إبداعيّة وفنّيّة وإداريّة مع بداية الاستقلال، عادوا يحملون شهادات دراسيّة عليا وخبرات فنية، وهذا لا يعني أن الليبيّين الذين عادوا من مصر وتونس كانوا أقلّ منهم، ولكن حساسية الجوار وعددهم الكبير لعبا دوراً في تشكيل صورتهم.

الليبيّون الذين عادوا من سوريا أيضاً لم يتخلّصوا من تأثير المجتمع المشرقيّ عليهم، حيث كانوا في سوريا أقلّية ليبية مغاربية مهاجرة، علاقاتهم الأسرية عميقة، لا يسمحون لبناتهم بالزواج من السوريّين إلا في حالات نادرة، وحينما عادت معظم هذه العائلات وجدت نفسها تتقارب أكثر بل حتى اختارت أماكن سكن متجاورة كما كانت قد فعلت في دمشق.

هذه الملامح العامّة لمن اخترت أن أكتب عنهم، فكان الطريق إلى الرواية ممهّداً باتّصالات وزيارات ميدانيّة لكثير ممّن أعرفهم، بعضهم كان يعمل في مجال الكتابة، ولديه كتب حول تاريخ الليبيّين في سوريا ونضالهم السياسيّ، وعلى رأسهم من سعى إلى استقلالها بشير بك السعداويّ، وكيف كان نادي عمر المختار في دمشق

وسط منطقة تسمّى بالطليانيّ، وتمّ استصدار قرار ليسمّى ذلك الشارع رسمياً باسم المجاهد عمر المختار، وكان ذلك يشكّل تحدّياً وانتصاراً لليبيين في ذلك الوقت.

خلال طرقي أبواب المعارف وكثير من الأقارب استمتعت باستعادة تلك الذاكرة بقصص عائلية لهم وتجارب وانطباعات ومفارقات وآراء، معظمهم دعمني للكتابة عن حيَواتهم، بعضهم كان حكّاءً من طراز رفيع، وبعضهم حاول جرّي للكتابة التاريخيّة والنضاليّة، كلّ حسب هواه. وأتذكّر كم استمتعت بما ترويه عمّتي لي من حكايات، لهذا كان لا بدّ من شخصية «العمّة» لتكون بطلة في المشهد الروائيّ، وانتبهت فجأة إلى أنّني جمعت عدداً من كرّاسات صغيرة الحجم وأنيقة بألوان مختلفة، كنت أشتريها بالعادة وأنا في طريقي إلى موعد مع أحد الشهود أو الأبطال الرواة، وفي النهاية قرّرت شراء كرّاسة ذات حجم كبير، والدخول في عزلة تفريغ تلك الحكايات وصوغها ضمن حبكة روائيّة.

قرّرت الكتابة على الورق، برغم حسن استخدامي لجهاز الكومبيوتر، كنت أخشى من سرعة تدفّق الأفكار بحيث لا تتوازى مع سرعة نقر أصابعي على الجهاز، أخذت أحبّر الأوراق على الكرّاسة الكبيرة وأترك صفحة فارغة مقابل كلّ صفحة مكتوبة، وحين كنت أعود في اليوم التالي لأعيد قراءة ما كتبت وبالقلم الأحمر كانت تخرج سهام طويلة بين المقاطع المكتوبة إلى الصفحة المقابلة، أضيف فقرة أو جملة، أو أضع ملاحظة شخصية.

كان كلّ ما يلزمني وقتها قصّة حب عاطفيّة، لا أعرف لماذا كنت مصرّة على أنّ قصّة حبّ يمكن أن تجذب القارئ! وفي ذلك الوقت فكّرت كثيراً بالقارئ، كان هاجسي أن يجد متعته ويكتشف عالماً

جديداً لا يعرفه سابقاً. كنت أسجّل في صفحات من كرّاساتي الصغيرة أقوالاً لفلاسفة وأدباء، وحين أتصفّحها أجد أنّها ملهمة للعمل. اقتبست الكثير ممّا جمعته، حاولت توظيفه ضمن السياق الروائيّ، كانت مرحلة تجريب فعليّ لكتابة الرواية الأولى دون تأثّر بأسلوب سبق أن أعجبت به.

في الواقع خضت التجربة بحبّ حقيقيّ للنصّ، كنت أستمتع حينما أخلق شخصيّة ذهنيّة مركّبة من ملامح عدد من الأشخاص الذين عرفتهم، وكانت غرفتي في ذلك الوقت لا تحتوي إلّا على مكتبة تمتدّ على اتساع الجدار المقابل، وطاولة صغيرة لجهاز الكومبيوتر، وطاولة الكتابة وكنبة عريضة، أصبحت إقامتي الدائمة فيها، هجرت غرفة نومي طيلة تلك الفترة، كانت للغرفة شرفة واسعة جميلة، أحمل فنجان قهوتي وأحتسيه هناك وأتأمّل الشارع بعين ترى ولا ترى إلّا ما في خاطرها، كانت ملامح العابرين تحت الشرفة تغدو شبيهة بملامح شخصيات روايتي، تملّكني الإحساس بالمسؤولية عن مصير هؤلاء الأشخاص الذين كان لهم في الواقع وجود، إلّا أنّني عملت باجتهاد لإلباسهم أقنعة أخرى، كان الخوف يتسلّل بين الأسطر من غضب أحدهم، لكنّني كنت مستمرّة في الكتابة.

لم أجرؤ على طباعتها، وطلبت من ابنة عمّتي رقنها، فهي أسرع منّي بكثير، واشترطت عليها عدم إبداء رأيها الشخصيّ، كنت أرسل لها الفصول مصوّرة من كرّاستي وأستلمها مطبوعة على قرص مدمج، ثمّ أخذت أجري التعديلات النهائية حين اتّصلت بي ابنة عمتي، وقالت اسمحي لي بالتدخل. ثمّ أخبرتني أنّها وجدت في الرواية متعة كبيرة، ولكن بعض الحكايات سوف تترك أثراً سلبيّاً على علاقاتنا الاجتماعيّة بمن نعرفهم ونملك معهم علاقات وطيدة.

كانت تشير إلى مشاهد أعتقد أنّها من أجمل ما كتب في روايتي تتضمّن أحداثاً دراميّة تنهض بالعمل والنصّ بمجمله، وحدث ذلك الصراع المؤجّل، هل أرضي القارئ على حساب من باح لي بأسرار وقصص صارت ضمن نسيج الرواية أم أشطبها؟

في الواقع لم أكن أمتلك الأدوات الفنّيّة لكتابة نصّ سرديّ طويل أتحايل في إخفاء الملامح الكاملة لتلك الشخصيات التي استدرجتها لتكون محوريّة في العمل، وفضلت شطب الكثير من الصفحات وتغيير الأحداث لتناسب التعديل، وقتها أصبح العمل شاقّاً متعباً، وأتذكر أنّني كتبت عنه ليكون عتبة النصّ حول شجاعة التدوين الكامنة في الحذف والشطب.

ظروف كثيرة حالت دون طباعة الرواية بعد إنجازها ولكن أرسلتها في عام 2003 إلى دار الأوائل في دمشق وصدرت في أبريل 2004م.

في المقدّمة ذكرتُ حماسي اليوم لكتابة الشهادة، والسبب أنّ الرواية تمّ تناولها بالدراسة والقراءة بل كانت مشاريع لرسائل ماجستير ودكتوراه، وأغلب من كتب عنها في ليبيا، ولمعرفتهم بأنّي أنتمي إلى أبناء المهاجرين أجدادهم إلى سوريا، كتبوا أنّها سيرة شخصية، لم يكن هيناً عليّ تقبل الأمر، بل كان مزعجاً لفترة من الوقت، وتولّد الإحساس المريع بأنّها ليست سوى سرد عاديّ يخلو من أي قيمة فنّيّة. وأقول لنفسي: كلّ ما فعلته من تغير ظروف البطلة زينة في الرواية حتى لا تشبهني، إلّا أنّ البعض مصرّ على محاكمة الرواية، حتى أخلاقياً، وكأنّها تخلو من الفنّ والخيال، ويتحدّث عن بطلة الرواية زينة وعلاقاتها العاطفية بأنّها الروائية الكاتبة نفسها.

أعترف أنّ الناحية النفسيّة وارتباطها بالمكان وحيرتها بين ذاكرتها في دمشق وحياتها في طرابلس هي ذاكرتي الشخصية وتجربتي الخاصة ونظرتي إلى بيئتين فيهما تباين من حيث العادات والتقاليد، لكنّني في ذلك الحين وأثناء الكتابة لم أمتلك الخيار في منحها لشخصية أخرى في الرواية التي تتحدث بضمير المتكلم، فوسمت بأنّها سيرة ذاتية، فيما هي سيرة ذاكرة جمعية لكلّ أولئك الذين تحدّثت عنهم الرواية، ولم أكن بدوري سوى سمكة سلمون صغيرة عليها أن تدوّن الحكايات وتحميها من الاندثار الضياع.

ذلك الدأب الفاتن

زكريا عبد الجواد *

حتّى الآن، كلّما فكّرت في الأمر، لا أعرف ما هو السبب الذي دفع القارب للرسو في ذلك المرفأ. وإن كنت أدرك متى جاءت تلك اللحظة التي حرّضت المجداف على الدفع في هذا الاتّجاه.

في لحظة محدّدة من عام 2005، حدث ذلك، جاء من حفّزني على السير في ذلك الطريق المضني، بعد سنوات من النجاح في تجنّبه، بوسائل أخرى، استطعت من خلالها، مراوغة هذا الطيف، كلّما لمحته يقترب، وإرجاء الخطوة الأولى.

دائماً ما كانت فكرة كتابة الرواية تلوح في البال، من وقت إلى آخر ظلّت حيل الهروب تتوارد، لجأت إلى الشعر، أصدرت أول مجموعة، واعتقدت أنّ الطريق بات ممهّداً، لكنّ الصحافة سرعان ما

* روائي وصحفي مصريّ مقيم في الكويت. صدرت روايته الأولى «خيار الصفر»- عن الدار العربية للعلوم ناشرون - بيروت 2006، وصدرت له بعدها عدة أعمال روائيّة: «قبعة الوطن» بيروت 2008، «الجحيم يصحو مبكراً» - المنامة 2012، «الاحتياطي» - الهيئة للكتاب في مصر - 2014، «شغف خافت» - القاهرة 2016.

استهوتني، غرقت في فنونها المراوغة، وبقيت لسنوات طويلة، أسبح في جداول الصحافة اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية، ومنها انتقلت إلى البرامج الإذاعية والتليفزيونية، وخلال ذلك كتبت القصّة وانتظمت في كتابة المقال، لكني في النهاية وصلت إلى قناعة بأنّ كل تلك الأزقّة التي سرت فيها، أو تلك الروافد التي كان النهر يتفرّع إليها، لم تكن سوى محاولات مستميتة للهروب، وأنها في النهاية لم تستطع إرواء ذلك الظمأ العارم لثرثرة مبهجة.

خلال تلك المحاولات، كانت القراءة عادة يومية، تستقطع ساعات محددة من نهايات اليوم، وكان ذلك يغدق عليّ متعةً باذخةً، كنت أتجرّع منها فأرتوي في سعادة.

لعلّ تلك المتعة على وجه التحديد، هي التي جعلتني أكتفي بها، في مقابل أن أنأى بنفسي عن الدخول في مسارات تلك المشقّة، التي ظلت تغويني لفترة طويلة، حتى جاء اليوم الذي لم أستطع فيه اختلاق حجج جديدة.

* * *

كان ذلك عندما نظمت مجلة «العربي» الكويتية التي كنت أعمل بها لسنوات طويلة، ندوة عن رحلات المجلة شرقاً وغرباً، ودعَت لها عدداً من الضيوف من الأدباء والرحّالة وكبار المثقفين في المنطقة العربية.

في ليلة الافتتاح، كنت أجلس مع أحد الضيوف؛ روائيّ عربيّ مرموق، سألني عن أهمّ ما قابلني خلال الاستطلاعات التي أوفدتني المجلة لإجرائها، تلك المواقف والأحداث المثيرة للدهشة وغير المنشورة، حكيت له عمّا شاهدته في الهند، كنت قد سافرت إليها لإجراء استطلاع مصوّر.

قبل السفر، وطوال شهر كامل، قرأت كلّ ما وقع في يدي من كتب عن تلك البلاد، قمت بتلخيص المعلومات، ورتّبتها وفقا للولايات التي تقرّر زيارتها، وحين كنت وزميلي المصوّر نجلس على مقعدين متجاورين في الطائرة المتجهة إلى مطار أنديرا غاندي في العاصمة دلهي، كنّا حجزنا الرحلات الداخلية والفنادق وحتى السيارات المؤجّرة التي ستصاحبنا طيلة الرحلة، وحدّدنا الأوقات التي سنقابل فيها مسؤولين ومثقفين وفنانين وشخصيات أخرى من تلك البلاد أو التي كانت تقيم فيها.

كلّ شيء كان مرتّباً، غير أنه في بلد مثل الهند، لا يخلو الأمر مهما كانت دقّة الترتيب، من مفاجآت مدهشة. وذلك ما يمكن أن يؤدّي إلى تحويل مسار الرحلة، حدث هذا في عدّة رحلات سابقة دارت بنا بين الشرق والغرب.

أخبرت الروائيّ ليلتها بحكاية ذلك الشاب الفلسطيني الذي أصبح إلهاً ولديه الآلاف ممّن يؤمنون به، ويقيمون بين يديه طقوس عبادتهم، في مواعيد محدّدة عند بداية اليوم وقبل نهايته.

حدث ذلك عندما أخبرني أحد مراسلي وكالة أنباء عربية في دلهي بحكاية هذا الشاب، معرباً عن استعداده لإيصالي إلى حيث يتواجد في إحدى ولايات الجنوب.

* * *

حكيت بتفاصيل مرتبة، وقائع القصة، من بداية وصول هذا الفتى إلى الهند لدراسة الدكتوراه، حتى اللحظة التي قادته للوقوع في قبضة من قاموا باعتقاله أولاً، قبل أن يقرّر زعيمهم أنّ مواصفات الإله الذي تتوارث القبيلة ترديدها، تنطبق على ملامحه.

عند هذه النقطة، كانت ملامح الدهشة تبدو بوضوح على وجه الصديق الروائيّ، عقّب بكلمات مشجعة، وانتهى هذا اليوم.

في الصباح، قبل موعد بداية الجلسة الحوارية الأولى للندوة، لمحته وهو يتّجه من بعيد نحوي، وحين اقترب، قال لي إنّ ما كنت تحكيه بالأمس هو نصّ متكامل، إن لم تكتبه أنت سوف أقوم بكتابته. وجدتني أردّ عليه دون انتظار: بل سأكتبه.

* * *

تلك اللحظة مثَلت تحدّياً كبيراً لي، على وجه التحديد، هي التي أمسكت بالمجداف فجأة، ودفعته إلى توجيه المركب في الاتجاه الذي ظلّ يسير فيه بعد ذلك. في نفس الأسبوع، كنت قد تقدّمت بطلب للحصول على الإجازة السنوية، قرّرت أن أقضيها في غرفة المكتب، افترضت أنّي أغادر إلى العمل كلّ يوم، أرتدي الملابس التي أذهب بها، وأنتظم في المكتب من السابعة حتى الواحدة والنصف، وأحصل لنفسي على إجازة كلّ يوم جمعة.

خلال فترة الإجازة، كنت قد كتبت الرواية بالكامل، استهواني الأمر، فاقتطعت وقتاً إضافياً لمراجعتها، ثم عدت مرّات عدّة لقراءتها وإعادة الصياغة، كانت المرة الأولى التي أكتب فيها الروايات، لكنها أنهكتني، ودفعتني خصوصاً خلال المراجعة، إلى التفكير في تمزيقها، وفي كلّ مرة كنت أتراجع، كان الجهد الذي بذلته، والذي كنت أشعر معه بأنه أنهك قواي، هو الذي يجعلني أعدل عن هذه الفكرة في آخر لحظة.

لكن التعب لم يكن في كتابتها فقط، كانت المعاناة أيضاً

في نشرها، أرسلتها إلى عدد من دور النشر، وبدأت رحلة من المساومات، بعض تلك الدور لم تكن قرأتها، فخلال أسبوع كان الرد يتضمّن عرضاً بالمبلغ الذي ينبغي عليّ أن أدفعه، وكأنّه لم يكن يكفيني هذا الجهد الذي عانيت منه عند كتابتها.

دار نشر وحيدة كانت هي التي تعاملت معي بشكل راق، طبعتها وقامت بتوزيعها دون أن تطلب مني أي مساهمة، وبعد نشرها، منحت لي نسبة كبيرة من النسخ، وأوصلتها لي في مكان إقامتي. وحين سافرت إلى كندا، وزرت المكتبة الكبرى في مونتريال، وجدت رواية «خيار الصفر» هناك، مستقرة على أحد الأرفف في قسم الروايات الصادرة باللغة العربية.

* * *

الآن، أسأل نفسي، إذا كانت كتابة الرواية تأتي بكلّ ذلك العناء، فلماذا استهواني الأمر ودفعني لكتابة خمس روايات أخرى؟ والإجابة البسيطة التي أجدها أمامي الآن، هي تلك المتعة التي أحسّها، رغم التعب، ذلك الألق الجميل الذي يجتاح كياني حين أضع النقطة، في نهاية السطر الأخير، تلك التنهيدة التي تخرج من الصدر، والتي تحمل معها للقلب راحة عميقة.

الحلّاق البنغاليّ الذي لا يحبُّ عبد الناصر

سليمان المعمري *

دخلتُ عالم الرّواية بالمصادفة، وبسبب حلّاق بنغالي. إن جاز لي أن أؤرّخ ذلك سأقول إنه كان صبيحة يوم من ربيع عام 2012م. كان الحلاق قد سكت قلبُه للتو فحُمِل من عُمان في تابوت ونُثِر رماده في أحد أنهار بنغلاديش. وقتها كنتُ قد أمضيت سبعة عشر عاماً في كتابة القصة كانت محصلتها ثلاث مجموعات قصصية متباعدة النشر، ولم يكن لائحاً في الأفق أنني سأكتب رواية. لم أكن مجرد محب لكتابة القصص القصيرة، بل ويغضبني من يتخذها سُلَّماً للوصول إلى الرواية. وكنت أكرر دائماً لمن يسألني: بعد ثلاث مجموعات قصصية أما آن الآوان لتكتب رواية؟ إن الرواية فنّ والقصة فنّ مختلف تماماً، وإنني لا أعتبر كتابة الرواية هي مرحلة تطوّر للأديب من قاصّ إلى روائي. فالقصة القصيرة لا تقل أهميةً من

---

* كاتب وإعلامي من سلطنة عُمان، نشر عدداً من الكتب في القصة والرواية، له في الرواية: «الذي لا يحب جمال عبد الناصر» وقد صدرت عن دار الانتشار العربي في بيروت 2013م.

الرواية، ولا فرق بينهما إلّا في التقنيات. وأنني أؤمن أنَّ قصةً جيّدةً واحدةً خيرٌ من عشر روايات رديئة. غير أن «شوزيت» مات فأدخلني هذا العالم دون قرار أو تخطيط مسبق.

لم يكن «شوزيت» مجرد حلّاق في قريتي «الردة» التي أضحت الآن مدينة، بل شاهداً من غير أهلها على جميع تحولاتها العمرانية والاجتماعية والنفسية والأخلاقية. قضى فيها سبعة وعشرين عاماً هي أكثر من نصف عمره عندما مات. وبسبب مهنته، لم يبق رأس في الردة إلّا وانحنى لهذا البنغاليّ العصاميّ.

قد يظنّ ظانّ أنّ روايتي الأولى كانت عن «شوزيت». لا، ليس الأمر كذلك. حينها، عندما رحل الحلّاق في ذلك اليوم من 2012، كنتُ متأثّراً بقراءاتي لبعض الكتب التي تتضمّن بورتوريهات سرديّة عن أشخاص أو أماكنَ. كتاب «رحيل» لعبد الله حبيب مثلاً الذي رثى فيه ست عشرة شخصية معروفة ومغمورة بأسلوب آسر، وبورتوريهات الشاعر صالح العامري لأصدقائه في ملحق «شرفات» الثقافي، وبعض بورتوريهات «أخبار الأدب» المصرية في صفحتها الأخيرة، وسرد سليم مطر عن أبيه في «اعترافات رجل لا يستحي»، فكان أن قررتُ أن أرثي «شوزيت» ببورتوريه مماثل.

بعد نشر النص الذي كان عنوانه «رماد شوزيت» دهشتُ من القبول الحسن الذي لاقاه، ليس فقط من الأصدقاء الكتّاب، والقراء الذين يمكن تسميتهم «نخبويين»، ولكن أيضاً من أولئك البسطاء في «الردة» الذين لم أعتد منهم سابقاً أيَّ تغذية راجعة على ما أكتب، لدرجة أنني لم أكن أعرف أنهم يقرؤونني أصلاً. حينها التمعت في رأسي فكرة: لم يكن «شوزيت» إلّا واحدًا من شخصيات مدهشة كثيرة عايشتُها وأعايشها كل يوم. لِمَ لا أبدأ سلسلة بورتوريهات

عن هذه الشخصيات، سيكون كتاباً سردياً رائعاً ولا شك. تذكرتُ حينها صديقي زاهر المحروقي الذي كان لا يمل من تحريضي على استغلال «الشخصيات الروائية» التي يضج بها مكان عملنا المشترك: إذاعة سلطنة عُمان. قلتُ سأبدأ بأكثرها إدهاشاً بالنسبة لي.

كان بسيوني سلطان[1] رجلاً مصرياً سبعينياً ذا أنف طويل، متديناً، لسانه رطب بذكر الله، ولا يحب الجهر بالفحش من القول إلّا في حالة واحدة يتيمة؛ إذا ذكرتَ أمامه - عمداً أو خطأً، لا فرق - اسم الزعيم جمال عبد الناصر. كانت علاقتنا عادية في بدايات تعرّفي به، أو لِنَقُلْ إنها فاترة بسبب عدم تقبله تعليقاً لي على خطأ يخص عمله. وذات يوم، وبينما كان الحديث مع الزملاء في العمل عن مآلات الربيع العربي ذكر أحدنا بشكل طبيعي جداً اسم جمال عبد الناصر فكان أن هدرت القاعة فجأة بصراخ وشتائم بسيوني: «الله يلعنه، ويلعن اللي يتشدد له». ثم ما لبث أن تكرر هذا المشهد بعد ذلك وإن بطرق أخرى وتفاصيل مختلفة.

استعدتُ بعضاً من حكاياته وقفشاته وسجلتها على الورق. لكن ذلك لم يكن كافياً، فكل هذه الحكايات لا تقدم بسيوني إلّا من الخارج، وكنت بحاجة لأنْ أراه من الداخل، من جوانياته العميقة. ولأني لم أكنْ من أصدقائه المقربين، ولا أملَ لي أنْ أصبح صديقه بعد أنْ أعلنت أمامه حبي لجمال عبد الناصر، فقد كان يلزمني الاقتراب منه عن طريق وسيط. كنتُ مدركاً في داخلي أن وراء هذا الرجل الذي لا يطيق عبد الناصر حكايات مدهشة تستحق

(1) بسيوني سلطان ليس هو الاسم الحقيقي لهذه الشخصية، ولكنني سأسميه بهذا الاسم بما أن هذا هو الاسم الذي عُرِف به في روايتي الأولى.

أن تُروى، سواء أكانت في بلده الأصلي مصر، أو في بلده الثاني عُمان الذي قضى فيه خمسة وثلاثين عاما. لحسن الحظ أنه كان لنا - هو وأنا - صديق مشترك هو نفسه الرجل الذي كان يشجعني دوما على الكتابة عن شخصيات محيطة بي: زاهر المحروقي. ولم يكنْ زاهر - لحسن حظي مرة أخرى - مجرد سارد عادي، ولكن محلل نفساني قادر على إقناعك بالبواعث التي أرغمت فلاناً على هذا القول وعِلاناً ذاك الفعل. طلبتُ منه بعد أن شرحتُ له رغبتي في الكتابة عن بسيوني، وبعد أنْ وعدته بأنْ يظل حديثه سراً بيننا (أأكون أفشيتُ السرّ الآن؟!) أنْ يسردَ لي كلَّ ما يعرفه عن هذه الشخصية العجيبة، وألّا يترددَ في قول كلِّ ما يعرفه عنه أو يحسَّ به تجاهه، فوافق وأدرتُ زر التسجيل.

لأسابيع وأشهر كان الـ CD الخاص ببسيوني سلطان يرافقني في سيارتي المازدا أينما ذهبتُ. كنتُ أيامها أستعيد وأنا أمخر عباب الطريق ذلك الشاعر الفرنسي الذي كتب على باب غرفة نومه وهو نائم: «الرجاء عدم الإزعاج، فالشاعر يعمل»، وأقول ساخراً من نفسي: «ليس فقط وهو نائم، الكاتب يعمل أيضاً وهو يسوق!». رافق ذلك أنَّ مواقفَ بسيوني وحكاياته الطريفة تتجدّدُ بشكل شبه يومي. تشرّبتُ جميع هذه الحكايات والمواقف، ثم بدأتُ الكتابة.

وكما يحدث دائماً، فإنك تجلس لتكتبَ شيئًا فإذا بالكتابة تقودك لشيء آخر. كانت حكايات بسيوني تتناسل أثناء الكتابة، وتغريني بردم بعض ثغراتها الواقعية بلطافة الخيال. وهكذا حذفتُ تفاصيل وأضفتُ تفاصيل أخرى حتى لم يعدْ بسيوني سلطان الواقع هو نفسه بسيوني سلطان الخيال. وكان القرار أن يتحول البورتوريه السردي إلى رواية. أما العنوان فلم ألاقِ صعوبة في البحث عنه:

«الـذي لا يحـب جمـال عبـد الناصـر». كان بسـيوني شـخصية روائيـة مكتملـة كـوردة متفتحـة تنتظـر فقـط مـن يقطفهـا. لا يمكننـي إذاً أن أتفاخـر الآن بأنني خلقـتُ هـذه الشـخصية. قـرأتُ مؤخـراً مقـالاً مترجمـا للروائيـة البريطانيـة إليزابيـث بويـن تقـول فيـه: «إن مصطلـح «خلـق الشـخصيات» مضلّـل. الشـخصيات توجـد بشـكلٍ مسـبق، لا يتـمُّ خلقهـا بـل العثـور عليهـا. إنهـا تكشـف نفسـها ببـطء فـي وعـي الروائـي؛ مثـل رفـاق مسـافرين يجلسـون متقابليـن فـي مقصـورة قطـارٍ خافتـة الإضـاءة»، ولقـد عثـرتُ علـى شـخصيتي التـي كانـت بمثابـة الكنـز. كنـا - إذا مـا اسـتعرتُ لغـة بويـن التـي ترجمتْهـا بثينـة العيسـى - رفيقَيْـن متقابِلَيْـن فـي مكتـب فسـيح عالـي الإضـاءة.

بعـد فراغـي مـن كتابـة النـص أرسـلتُه بالإيميـل إلـى كنـدا، حيـث قارئـي الأول صديقـي الروائـي والقـاص عبـد العزيـز الفارسـي. انتبـه عبـد العزيـز أن شـخصية بسـيوني طغـت فـي النـص علـى جميـع الشـخصيات الأخـرى، فكانـت أشـبه بالشـجرة التـي أخفـت الغابـة، ونبهنـي إلـى شـخصيات عُمانيـة كان يمكـن أن تكـون شـخصيات مدهشـة لـو أننـي أوليتُهـا بعـض العنايـة التـي أوليتُهـا لشـخصية بسـيوني. فـكان أن أعـدتُ كتابـة الروايـة مـن جديـد، مركـزاً هـذه المـرة علـى شـخصيات أخـرى فـي الروايـة كزينـب العجمـي ورئيـس التحريـر ورئيـس القسـم الدينـي ورئيـس القسـم الثقافـي.

لا أذكـر أيـن قـرأتُ أن الكاتـب ينجـح فـي رسـم أي شـخصية إذا مـا وضـع لهـا فـي البدايـة جـذراً مـن الواقـع، وهـذا مـا حاولـتُ فعلـه عنـد إعـادة كتابتـي لهـذه الشـخصيات، كان ذلـك منهـكاً ولكنـه ممتـع. كانـت الشـخصيات محيطـة بـي ومـا كان علـي سـوى التقاطهـا ثـم إعـادة كتابتهـا مـن جديـد بمـا يتـلاءم مـع الجـو العـام للروايـة، تطلّـب ذلـك جلسـات

حوار مطوّلة مع بعض الأصدقاء الذين رأيتُ أن بإمكانهم إضاءة هذه الشخصيات، كجلساتي مع الصديق عاصم الشيدي المحرر الثقافي لملحق شرفات التي عرفني فيها على كثير من كواليس عمله والصعوبات التي يواجهها، وهو ما ساعدني كثيراً في رسم شخصية رئيس القسم الثقافي.

واليوم، وأنا أستعيد حكاية روايتي الأولى، وكيف أنّ شخصية واحدة في الواقع قادتني إلى شخصيات أخرى وأحداث متشابكة، بتُّ أكثرُ إيماناً أن جمال الكتابة يكمن في هذا الأمر. في ذلك الطريق الذي نسلكه دون أن نعرف إلى أين ستقودنا دهاليزه، وهل سنصل في النهاية أم سيكون مصيرنا الضياع في المجهول.

أسئلة الهوية والحفر في الماضي

عاطف أبو سيف *

لا أعـرف إذا مـا كنـت أريـد أن أكـون كاتبـاً أم لا حيـن كنـت أضـع رأسـي علـى المخـدة وأنـا أحـاول إعـادة سـرد حكاية جدتـي عـن طفولتها وصباهـا فـي يافـا قبـل النـوم، حكايـة تمتـد حتـى تصـل إلـى خروجهـا الرهيـب تحـت تهديـد السـلاح والقصـف والقتـل والتدميـر مـن مدينتهـا الجميلـة إلـى سـوافي الرمـال قبالـة شـواطئ غـزة؛ لتسـتبدل بيتـاً جميـلاً علـى شـاطئ «عـروس البحـر» بخيمـة علـى سـوافي الرمـال.

مـا كنـت أعرفـه أننـي كنـت أريـد أن أحكـي حكايـة جدتـي، أن أكتبهـا. وحتـى يومـي هـذا مـا زلـت أقـف مبهـوراً أمـام تلـك الجاذبيـة التـي كانـت تجعـل مـن حكايـة معجونـة بالألـم تـروق لطفـل لـم يبلـغ العاشـرة بعـد.

---

* روائـي فلسـطينيّ، مـن مواليـد غـزة بفلسـطين 1973، درس اللغـة الإنجليزيـة وآدابها فـي جامعـة بيرزيـت بفلسـطين، يحمـل درجـة الماجسـتير فـي العلـوم السياسـية مـن جامعـة برادفـورد بإنجلتـرا، ويحمـل كذلـك شـهادة الدكتـوراه فـي العلـوم السياسـية مـن جامعـة فلورنسـا بإيطاليـا. دخلـت روايتـه «حيـاة معلقـة» فـي القائمـة القصيـرة للجائـزة العالميـة للروايـة العربيـة (البوكـر) لعـام 2015. لـه فـي الروايـة: «ظـلال فـي الذاكـرة»، 1997، «حكايـة ليلـة سـامر»، 2000، «كـرة الثلـج»، 2001، «حصـرم الجنـة»، 2003، «حيـاة معلقـة»، 2014، «الحاجـة كريسـتينا»، 2016.

كانت جدتي راوية ماهرة، كأنها تنسى أنها تروي حكايتها وتأخذ الحكاية الجماعية لأهل حارتها ورفيقاتها في يافا تتسلل بخفة لتهيمن على الحكاية الشخصية. في الحقيقة كنت محاطاً بمجموعة كبيرة من الرواة المهرة، ففي المخيم حيث ولدت وترعرعت، كان الناس بارعين في رواية ماضيهم، لأنه الواقع الغائب الذي يشكل نقيض حاضرهم المرّ. الجمال مقابل القبح. تعجّ ذاكرتهم بالأحداث الجميلة واللحظات السعيدة التي يبدو يومهم أمامها كابوساً مريراً. لذا كنت أشعر دائماً أنني أريد أن أكتب قصص هؤلاء الناس، حكاياتهم، أن أصف ماضيهم قبل أن يجف الكلام من شفاههم الرطبة بحلاوته.

بدأت أسجّل بعضاً من تلك القصص في دفتر خاص وأنا في المرحلة الإعدادية. أحداث وأشخاص وأماكن لا ينظمها شيء إلّا خط يدي. لكنها كانت مليئة بالفقد والبحث المحموم عن لمّ الشمل واستعادة الماضي.

أول محاولة جادة لي لكتابة قصة تمكن قراءتها كانت خلال فترة أسري في سجن النقب الصحراويّ عام 1991. كنت في الثامنة عشر من عمري. كتبت قصة قصيرة لتوزّع على رفاقي في الخيمة خلال شهر رمضان. القصة تصف يوماً حافلاً في حياة والدة أسير تستعدّ لاستقبال ابنها بعد إطلاق سراحه. تكنس البيت مرّات ومرّات، تعيد طلاء الجدارن، تزيّن الشارع، تذهب للسوق مرة بعد مرة خشية أن تكون قد نسيت أن تشتري شيئاً يحبه. ثم وما إن تعانقه عند بوّابة الحاجز الإسرائيلي حتى يخبرها الشباب أنّ الجيش اعتقل ابنها الآخر. تبدو قصة عادية. لكنّني ما زلتُ تحت تأثير سخرية أحد رفاقي الأسرى وهو يستنكر أحداث القصة إذا أنني أضعت وقته كما قال حتى أخبره أن ابناً خرج من السجن ودخل ابن آخر.

القصة بالنسبة لأسير مثله يجب أن تقول له إن الأسر والسجون لا بدّ أن تنتهي، فهي ليست أبدية. كأنه يقترح أنّ الأدب يجب أن يعطي

الناس الأمل، أن يجعلهم يفكّرون أيضاً في الغد، يجب أن يعني لهم شيئاً. وعليه فالقصة ليست مجرد أحداث وأشخاص وأماكن.

محاولتي الأولى في كتابة الرواية كانت بعد ذلك وخلال دراستي في جامعة «بيرزيت». خلال تطوّعي في المخيم الدولي الذي تنظّمه الجامعة في الصيف فوق التلال المحيطة بالجامعة، قابلت فتاة أجنبية شاركت في المخيم التطوّعيّ. قالت لي على حياء إنّ والدها فلسطيني لكنها لا تعرف شيئاً عنه. قصة يمكن سماعها كثيراً. لم يكن ثمة ما يثير في حكايتها أكثر من الحكايات الأخرى. لكنها كانت تصلح لأن تكون منطلقاً لكتابة رواية افتراضية عن شاب أجنبي يصل إلى البلاد ليبحث عن عائلة والده الذي تزوج أمه خلال دراسته في الغربة ثم توفي في حادث طريق.

مصادفة عادية لكنها تحمل الكثير من المصادفات الأخرى التي تجعل الرواية تجري مثل ماء في جدول. يبحث الشاب في غزة عن والده الذي هاجر من يافا، لا يملك إلا بعض الأوراق المتناثرة التي تشكل يوميات غير مكتملة وغير مترابطة. فالبحث عن الماضي يتطلب إعادة بنائه أيضاً. مثل البحث عن الآثار. رحلة بين الماضي والحاضر، بين الوطن والمنفي. تتداخل فيها قصص كثيرة وحكايات مختلفة تساهم في تعقيد وتقعيد الإجابة عن السؤال.

استعنت بالكثير من القصص والحكايات التي سمعتها عن حياة الناس في يافا وعن خروجهم القهريّ منها، كما أعملت بعضاً من المعلومات التي توفرت لي من القراءة. الرواية التي حملت عنوان «ظلال في الذاكرة» شكلت، حتى على صعيد الاسم، السؤال الكبير الذي كنت أظن أن حكايات الناس تدور حوله. ظلت تلك الظلال حافزاً كبيراً لاستكناه الحقيقة. الحقيقة التي لا يمكن للأدب أن يزعم أنّه يقبض عليها، لكنّه يحكي عنها.

فكـرة الهويـة والحفـر فـي الماضـي ومحاولـة ربـط الحاضـر بوشـائج وأوردة مـن الماضـي كان السـؤال العظيـم الـذي يقـف خلـف كل الحكايات التـي كنـت أسـمعها فـي المخيـم فـي طفولتـي خاصـة قصـص جدتـي عائشـة التـي تمنيـت يومـاً أن أكتـب قصـة حياتهـا. يبـدو الماضـي مجموعـة ظـلال متشـابكة متداخلـة، لكنهـا فـي تشـابكها وتداخلهـا هذا تصـوغ حاضر النـاس. فالأسـئلة لا تغيـب مـن حياتنـا، إنهـا فقـط تعيـد تشـكيل علامـة الاسـتفهام. تظـل، بالطبـع، الإجابـة عـن تلـك الأسـئلة مجـرّد معالجـات روائيـة لا تعنـي أكثـر مـن محاولـة مـن محـاولات عديـدة.

وعليـه كنـت فـي حيـرة مـن أمـري: هـل أجعـل الشـابّ يقـرّر أن يعيـش فـي فلسـطين أم يعـود أدراجـه إلـى حيـث يعيـش؟! طبعـاً أي نهايـة كانـت تعنـي موقفـاً تجـاه السـؤال الفلسـطينيّ الكبيـر. كأن مثـل هـذا الاقتـراح يريـد أن يقـول إنّ الروايـة الأولـى هـي أم الروايـات، ليـس بالمعنـى الجيني ولا الزمنـي بـل أيضـاً بمـا تحويـه مـن «طزاجـة» الأسـئلة وبراءتهـا.

لكننـي ظللـت بعـد ذلـك وخـلال كلّ كتاباتـي الروائيـة والقصصيـة أعيد علـى نفسـي دائمـاً الأسـئلة ذاتهـا التـي كانـت تعتمـل فـي عقـل الفتـى الـذي كنتـه وأنـا أسـتمع لقصـص جدتـي وقصـص جيرانـي فـي المخيـم، الأسـئلة التـي فرضـت نفسـها بقـوة فـي روايتـي الأولـى، والإجابـات غيـر المنجـزة التـي تجعـل مـن اسـتعادة السـؤال أمـراً محتومـاً دائمـاً. ربمـا لا نتخلـص مـن الأسـئلة بسـهولة. قـد ننسـى الإجابـات بسـهولة، لكننـا لا ننسـى الأسـئلة لأننـا نبحـث عـن إجابـات جديـدة دائمـاً.

عن أيّ فردوس أبحث حين أكون «أزمارينو»؟!

عبد القادر مسلم *

لربما كان تنقلي بين البلدان لحضور معرض تجاريّ ولتوقيع طلبية شراء ما دافعاً خفياً لكتابة العمل الروائيّ الأول. لك عزيزي القارئ أن تتخيّل رجلاً يحمل حقيبة دبلوماسيّة ويتنقّل بين مطارات الدنيا خالياً من إحساس الدهشة والامتلاء برائحة جديدة ونكهة قهوة مختلفة !!

كان لا بدّ لي من أخطّ امتلائي بذلك الشيء على الورق حتى لا يفيض دمعاً، فما عسى الجرح أن يفعل بعد النزف سوى أن يضّمد نفسه ويلتئم! حالة الشوق المتجدد تشبه نسق التاريخ فلا قدرة لنا على نسيانه أو إعادته للوراء قليلاً، عالق أنا بين امتلائي وخوائي، انتمائي وشرودي، صفائي وكدري، امتهاني وفوضويتي، كان لا بدّ من حدث يهزّ كياني، كان لا بدّ من صوت يوقظ انتمائي للأدب وللورق وللحياة، فالكتابة حد فاصل بين حياتين متوازيتين أنت الغائب وأنت الحاضر فيها. أنت كما تحب وأنت كما تخشى أن تكون.

* كاتب من مواليد أسمره – إرتريا 1974م، يحمل دبلوم تجارة دولية. صدر له عن دار مدارك «رواية أزمارينو»، مجموعة قصص قصيرة بعنوان «الغبانه».

لا زلتُ أذكر إحدى نشرات الأخبار المعتادة والمتوقّعة التي نقلت خبر غرق ثمانية وخمسين لاجئاً إرتريا في البحر الأبيض المتوسط في حادثة مريعة، تنامت الروايات حولها كنباتات صحراوية لا تستند إلى أصل الحكاية، وباتت جثث الغرقى كأشلاء مدينة تمزّقت بفعل زخّات الرصاص ودويّ الانفجارات. كنت أحسّ بأنّ ما يملؤني دهشةً وزهواً وفخراً ينهار وينكمش ليغدو إرثاً تافهاً، دفعني ذلك الإحساس لتقمّص دور الراوي العليم ببواطن الأمور، كي أرتّب الرواية من حيث النبع، وأستعيد ذلك الامتلاء. لست بصدد خلق أسئلة متدنية السقف، بل وجدت نفسي موكولاً بإعادة الزمن للوراء ليوازي اللحظة خطوة بخطوة.

يبدو أنّ ذلك كان مستحيلاً. لكن ما فائدة الأدب لو لم يخلق عالماً رائعاً وحلماً لا ينتهي بالغرق وما مغزاه - الأدب - إن لم يضع أسئلة لا سقف يحدّها ولا أحلام نرفلها؟!

حين نمتلئ بعشق مدينة ما فنحن نعتنق دينها وتاريخها وعنفوان صِباها، حالة تماهٍ وحميمة تجعل من المسامير التي تدقّ في جدرانها وخزاً يؤلمنا ومن تلك المعارك الهامشية على عتبات التاريخ رقصات فلكورية.

أصل الحكاية خيط فجر بريء كطفل يقف على رجليه للمرة الأولى، وحتى إن تعثر يبكي ثم يتبسم، أن تجذب تلك الجثث إلي شاطئها الأول وإلى نقطة العبور الساكنة في بقعة ما يعني أنني أنظم تراتيل توصلهم للشفاعة، فعندما تصاب الذائقة العامة بعدوى العبور إلي المجهول أياً كان ذلك المجهول الفردوسي، فذلك يعني أن الوجودية برمزيتها الناعمة اقتلعت، وحتى مشجب الأقدار علقت عليه كل الخطايا بحيث انحسرت فرص النجاة في خيار العبور. لكن ليس كل هروب يعني تجاوز المقدر فتجاوز الخطيئة لا يعني الخلاص.

ليلتها دارت بعقلي حوارات عبثية، الكل مذنب، الثورة والمنجل والمطرقة والآباء المؤسّسون وحتى «يماني باريا» مطربنا الخالد حين خرج علينا برائعته «أشرقت شمسنا» غداة يوم التحرير، فكان السؤال «أزمارينو - هل رأيت شروق الشمس». حين عاد الثوار لم يدرك أحد يومها أن الشمس لم تشرق كما يجب أو أننا كبشر لم ندرك بعد الشروق الحقيقيّ أو أننا لا نرى الشروق سوى لمرة واحدة في العمر ثم يتحوّل إلى ميقات روتينيّ. ولم ندرك بعد أنّ قصص الثورات تراتبية وتنتهي عادةً بمتسلّق يصل إلى سدّة العرش.

ولأنهي سجال الكتابة عدت بالذاكرة إلى صبي في الخامسة يتنقل بين خيم الرفاق حين كانوا في طور البراءة يلفون الكوفية الفلسطينية ويرفعون قبضة اليد ويرحلون بسبابة ووسطى منتصبة، وقبل هذه المشاهد كان الطفل ذاته يلعب في فناء مدرسة كل شيء فيها بصبغه إيطالية، فالمعلمة خادمة دير والحروف لاتينية والأطفال بألوان مختلفة الأشقر والأسمر والسحن تنسج واقعاً زاهياً. كان المحرض الأزلي يدفعني لأكتب بطريقة معقدة نوعاً ما وأتناول صنفاً مرّ الطعم؛ الرواية التوثيقية، فهي متعبة من ناحية بناء المتخيل الروائيّ وتحتاج لطاقة سرد تخلق عالماً فنياً منفصلاً.

وإن كنت بصدد خلق عالم فني تلتئم فيه سحابات السلام بوقع الرصاص ودوي الفجيعة فلا بد من ذاكرة أصلية مستقلة بريئة من المعنى اللفظي للمثل، لا تبحث عن خلاص متشكل بفعل المعاني التي ينسجها البشر عادةً كنتيجة حتمية لتجربة ما، فالعوالم في السرد لا تشير الي وقائع بذاتها أو إلى أرقام تاريخية إلّا ما ندر. طاقة المتخيل كانت مادة تحليلية وجدانية تتهكم بشكل وآخر على التساؤلات الباهتة والتي تقابلها أجوبة تسايرها كتفاً بكتف، فكلاهما يتبع درب السذاجة النقية.

تجربتـي الأولـى كتبتهـا بعيـون طفولتـي التـي سـرقها العبـور فـي نهايـة السـبعينات الميلاديـة ولا أجـد عيبـاً مـن اسـتخدام العبـور نكايـةً باللجـوء فمهمـا تعاظمـت الأخطـار المحدقـة لا أجدهـا مبـرراً للخـروج مـن «أسـمرة» وعـن أي فـردوس أبحـث حيـن أكـون «أزماريـنـو»؟

الروايـة الأولـى أنانيـة تنتزعـك مـن جـوارك بـلا رحمـة ولحظـة الانعتـاق أو رفاهيـة الـذات حيـن تراهـا مطبوعـة بيـن دفتيـن مـن الـورق السـميك ممهـور عليهـا اسـمها، لعـل لحظـة موافقـة دار النشـر علـى طباعـة الروايـة لحظـة مفصليـة، فحيـن بعثتهـا لـدار مـدارك كنـت كمـن يقـف علـى شـاطئ يثني ورقتـة اليتيمـة ويولجهـا فوهـة القـارورة ثـم يسـلمها بتـودّد إلـي المـوج الهـادر، كانـت لحظـة وداع لا تمـلّ وظلـت علـى حالهـا إلـى حيـن.

«إلى أولئك الذين خرجوا في عمر الزهور ولم يعودوا

وإلى أولئك الذين عادوا بساق واحدة وفؤاد ممزّق

وإلى العابرين الجدد للمجهول».

لـم أكتـب روايتـي الأولـى لتقـرأ بـل لتشـاهد هكـذا كانـت البدايـة ولـم أنتـهِ بعـد مـن كتابتهـا فالروايـات التوثيقيـة مطواعـه لعمـل فنّـيّ مرئـيّ، ولربمـا يتـمّ اسـتنطاق شـخوصها ولربمـا لا تنتهـي عنـد حـدّ الـورق والحبـر.

«فأنـا أكـره النهايـات حتـى كتبـي لا أنهـي قراءتهـا وحتـى الطـرق لا أصـل لآخرهـا وكأن فـي نهايـة الأشـياء مـوت خيالـي».

تمارين الرواية..

عبد الهادي سعدون *

أذكر أن أوسكار وايلد قد قال مرة بأن الأهم بكتابة رواية هو أن يكون لديك حكاية مقنعة وأن تشرع بكتابتها. أعتقد أيضاً بأن كل المشاريع الروائية تبتدئ من هذا الخيط، إذ بدون وجود هذه الحكاية والرغبة بتدوينها يصبح كل شيء مصيره العدم أو على الأقل مجرد مشروع كتابي في الذهن ولا يرى النور بهيئة كتاب. لعل هذا المنطلق يشير بشكل وبآخر لتجربتي الكتابية، إذ أنني مارست كتابة الشعر والقصة القصيرة لسنين طويلة، ودائماً ما خشيت الشروع بعوالم الرواية الشاسعة. مع ذلك لم تمر فترة من حياتي الكتابية

---

* ولد سنة 1968 في بغداد. كاتب عراقي مقيم في إسبانيا منذ عام 1993. باحث ومترجم وأستاذ متخصص في مادة الأدب الإسباني الحديث. حاز عام 2009 على جائزة الإبداع الأدبي (جائزة أنطونيو ماتشادو العالمية في إسبانيا) عن كتابه الشعري (دائماً) التي تمنح من قبل وزارة الثقافة الإسبانية. أصدر أكثر من 15 كتاباً في القصة والشعر والرواية من بينها: تأطير الضحك 1998، انتحالات عائلة 2002، حقول الغريب 2010، مذكرات كلب عراقي 2012 وتوستالا 2014.

التـي تفـوق العشـرين عامـاً دون أن أكـون قـد فكـرت وبـدأت بكتابـة روايـة جديـدة.

هـل كانـت مشـاريع مجهضـة أم أنّ داخلـي العصـي كان يرغـب فـي كل مـرة أن يكتـب روايـة فريـدة أولـى؟ لعلـه مـن هنـا جـاءت الأفـكار والمشـاريع المتتاليـة لتقتـلَ بعضُهـا بعضـاً دون أمـل بروايـة واحـدة متكاملـة. مـع ذلـك فـكلُّ التجـارب الروائيـة المجهضـة تلـك والتـي بدأتهـا فـي عـام 1990 تقريبـاً هـي ذاتهـا التـي مدتنـي فيما بعـد بدفعـة هائلة ليتكـون فـي داخلـي كل ذلـك الخزيـن مـن المعرفـة والمـران والتجربـة لأكتـبَ وأنشـرَ الروايـة الأولـى. أفـكار روايـات ومِـران شـهور وتفكيـر سـنين طويلـة بـلا انقطـاع تسـترجع كذكـرى حميميـة لتشـكل عنـدك النـواة المهيجـة لـذروة الكتـاب الروائـي الأول. مـن هنـا أعتبـر كل تلـك التجـارب بمثابـة تماريـن علـى النـص نفسـه قبـل أن يجـد شـكله ومحتـواه النهائـي فـي أولّ نـصّ روائـي متكامـل.

لسـت مـن أولئـك الكتـاب الذيـن يضعـون مخططـاً لمشـاريعهم الكتابيـة، أنـا مشـتت بطبعـي وفـي الكتابـة لا أشـذّ عـن هـذا الـدرب، مـع ذلـك أشـعر بالتـزام معيـن مـع نفسـي علـى الأقـل أن أكتـب بجديـة عندمـا أشـعر بقـوة الفكـرة وإغرائهـا وأحـاول أن أمنحهـا كل مناخاتهـا الممكنـة. حقيقـة ليـس عنـدي فصـل ولا وقـت معيـن للكتابـة. الكتابـة عنـدي ممكنـة فـي كلّ الظـروف والأحـوال. مـا أحتاجـه هـو الوقـت وحسـب والـذي قـد تسـعفني بـه شـروط الحيـاة أم لا، ولكـن مـن تجـارب عديـدة فـي حياتـي دائمـاً مـا أسـطو علـى الوقـت وأمطـه كبسـاط رحـب حتـى أسـتطيع التمتـع بوقـت كافٍ للكتابـة.

شـهور عديـدة أمضيهـا بالبحـث والقـراءة وكأنني أهيّـئ نفسـي لتمريـن الأشـهر التاليـة للكتابـة، قـد يكـون هـذا حديـاً أو صفـة بأغلـب مناخاتـي

الكتابية ولكنه ليس شرطاً ثابتاً، فالتجاوزات دائماً ما تحضر وبشدة. أميل وبشدة للفصول الدافئة، وهي الأشهر التي أشعر فيها بالتجدد ومسك الحياة من عرفها. أعتقد أن أغلب ما أكتب وأعيش كتابته في هذه الأوقات الدافئة من السنة، لكنني لا أعتقدُ أنَّ لها علاقة بالإلهام بقدر ما لها علاقة بالارتياح الذاتي وكأنني أنتظر فصل الدفء لأواجه الورقة عارياً ومستعداً لتجريب كلّ المُتع المتاحة في الكتابة.

كنت وما أزال أعتقد أنَّ الكتابة هي نوع من الرقى لمعالجة الروح قبل كل شيء، لذا أراها موجهة لإقناعي بجدواها قبل الآخرين، ولكن مع مرور الوقت أجدني متحيزاً لمراقبة ردود فعل الآخرين، بل بجدواها وقدرتها على إقناعي بجدوى هذه الرقى. يمكنني القول أنني توصلت لحل وسط ما بيني وبين القارئ، الكتابة بمعاضدة الذات ومن ثم الطفر حتى الخط المقابل لأكون واحداً من هؤلاء القراء. القارئ على أية حال هو الوجه المعكوس للكاتب في مرآة كتاباته. ولكن حتى هذه المرآة التي تنظر فيه لكتابتك الروائية من خلالها هي ذاتها معبأة بشحنات وشخصيات وحكايات متضافرة، مستوحاة من تجارب واقعية أم لا، كلها تنظر لك وتتلاعب بمصائرك الحكائية أيضاً.

من المقنع بالنسبة لي أن أجدَ ما يشدُّني لفكرة روائية، البحث عن كل صورها الممكنة سواء في نماذج واقعية أو تطويرها خيالياً من خلال مزجها بتجارب وقراءات ورؤى تتقابل معها أو تنفر. هل يمكنني القول أيضاً بفكرة تهييج تلك الحرية الداخلية غير المقيدة لتساعدني بمسك خيوطها المتنافرة والتعرف على شخوصها وأمكنتها وزمن تواجدها! الكاتب المقيد لا ينتجُ نصّاً حرّاً ولا كتابةً مقنعةً، وهو ما أؤمن به على الأقل في الكتابة والحياة. هذه ليست قناعةً

مفبركـةً وجاهـزةً بقـدر مـا هـي إنجـاز نتوصـل لـه مـن خـلال المـران الكتابـي المسـتمر. قـد أكـون محظوظـاً بـأن أغلـب مـا كتبتـه وجـد لـه مكانـاً خـارج شـرنقة الرقابـة الأخـرى وكذلـك الرقابـة الذاتيـة.

قـد أكـرر أقـوال أخـرى لكتـاب آخريـن، ولكـن الحقيقـة الوحيـدة التـي أراقبهـا هـو أن أكتـب نصـاً جيـداً متجـاوزاً كل شـروط الرقابـة الذاتيـة. الكتابـة فـي حياتـي نـوع مـن التطهـر والحريـة وهمـا نقيضـان لا يلتقيـان مـع أي تشـارط ورقابـة ذاتيـة. مـع كلّ كتـاب روائـي جديـد أكتبـه أشـعر وكأنني لـم أكتـبْ بعـد الكتـاب الحقيقـي الـذي أحلـم بـه، كتـاب عميـق يمثلنـي كليـاً ويشـير بشـكل متميـز لنتاجـي والـذي أحـاول أنْ أكتبَـه فـي الكتـاب القـادم. ولكـنَّ الحقيقـةَ هـي أنَّنـي فـي كلِّ مـرَّة أجـدُ أنَّ مـا أحلـمُ بـه موجـود فـي كلِّ مـا كتبتـه وكأنَّنـي أجمـعُ هـذه الشـذرات المتناثـرة فـي النصـوص كلِّهـا لتشـكلَّ هـذا الكتـابَ الواحـدَ الوحيـدَ الّـذي كتبتـه ومـا أزالُ أسـعى للإضافـة لـه بنصـوص أخـرى. ليـس هنـاك رضـى كامـل ولا خـذلان كامـل، أعتقـد أنَّ الواحـدَ منَّـا سيسـتمرُ للأبـد وكأنَّـه فـي المحطـة القادمـة سـيكتبُ أفضـلَ مـا عنـده.

الروايـة والشـرط الروائـي وآلياتـه بالنسـبة لـي لا تخـرج عـن حقـل كل عمـل كتابـي وإبداعـي أكتبـه وأنـوي كتابتـه فـي الفتـرة القادمـة، إمسـاك خيـط مـا يقنعنـي بجـدواه وضـرورة الاسـتمرار بـه. لا أبحـثُ عـن خـوارق ولا مسـتلزمات متبطّـرة، بـل وقـت مناسـب وحكايـة مقنعـة ولافتـة للقـارئ، ومـن ثـم ألتعـبُ فيهـا وكأنهـا الكتابـة الأخيـرة التـي تخـرج مـن رأسـي. لا أبخـل بـكل الحيـل والتطريـز الحكائـي ومسـتلزماته الواقعيـة والخياليـة وكأنَّنـي أصُّبهـا كلَّهـا فـي نـصّ هـو الأخيـر لـي ولا عمـل بعـده، لأنَّ بهـذا وحسـب مـا يقنعنـي كصاحـب للنـص بجـدوى وجـوده ونشـره ووصولـه للقـارئ.

كلُّ شيء بالنسبة لي ككاتب لنصّ روائي متاح ويجب النظر به والاستفادة منه. أعتقد أنَّني بكلِّ ما قلته سابقاً لا أحيدُ عن المسلَّمات المعروفة بالكتابة (والكتابة الروائية هنا)، ذلك أنْ لا حلولَ ولا أسرارَ ولا وصفاتٍ سحريةً لكتابٍ جيّدٍ في زمننا هذا، غير التّوق للكتابة والإصرار على الكتابة بوعي وحرص ومِران مستمرين حتى لو تجاوزت كتاباتك آلاف النصوص ومرَّ من عمرك العشرات من السنين. الكتابة بلا قناعةٍ معينةٍ (ولو شخصّية) لا تنقذ أيَّ خطابٍ ولا آليةٍ روائيةٍ، وبالتالي أيّ نصّ مكتوب.

«مذكّرات كلب عراقيّ»:

عندما بدأت بكتابة رواية (مذكرات كلب عراقي) لم أكن أعرف عنها سوى جملتها الأولى التي كتبتها عام 2006 في دفتر صغير ولم أرجعْ لها إلّا في عام 2010. الجملة الأولى تقول (في بلد لا أريد أن أذكر له اسماً، أجلس اليوم حتى آخر نِباح في حياتي، كي أدوّن هذه المذكّرات التي مرّت من عمري.). كان قد مرّ عليّ وقتٌ طويلٌ منذ أنْ أصدرتُ (انتحالات عائلة) وكنت أمرُّ بفترة تأملٍ عصيبةٍ جديدةٍ (بعد الفترة الدكتاتورية الصّدّامية العصيبة والمعيشة في المنفى بعيداً عن الأرض والأهل) لما يجري لبلدي من نزاعٍ طائفيّ وحربٍ تلتهم الأخضر واليابس، وكنتُ أشعرُ بنفسي عاجزاً تماماً عن إيجاد أية بارقة أمل لكلّ ما يجري هناك وما يجري لي. أصبت بما أسميته في إحدى قصصي القصيرة (بالسكتة الكتابية)، ولم أعدْ أهتم بكلّ ما يدورُ من حولي وكأنَّني قاطعتُ العالم برغبتي، بالطبع لم تعدْ الكتابة تهمني بالمرّة.

في جنوب لبنان وكنت قد عشت لسنتين أشتغل بما لا علاقة له بالكتابة، وفي إحدى ليالي تجوالي قرب الحقول الشاسعة على امتداد الخط الأزرق الفاصل ما بين لبنان وإسرائيل، لمحته هناك

تحت عريشة نُصبت في حقل لاتّقاء الشمس أو المطر. لم يطلْ الوقت حتى تلاقت نظرتنا، الواحد للآخر دون أن نرمشَ أو نفكرَ بالاختفاء أو الهرب. كان كلباً هزيلاً، جائعاً وقد هدّه العمر هداً بحيث لم تكن له من القوة بالنُّباح تهديداً لي أو حتى تحيةً تُشير لتواجده. بقيتُ أنظرُ له لمدة طويلة وعاودت الرجوع في أيام تالية لمراقبته حتى أضعَتُه بعد أكثرَ من شهرٍ من صداقةٍ صامتة.

لما فقدت صاحبي الكلب الهزيل، في الليلة نفسها، عدتُ لغرفتي واسترجعت تلك الجملة التي كتبت، وتخيلتها تمضي بسيرتها دون رجعة، وكأنَّني كنتُ أنتظر ذلك اللقاء حتى أكتبَ مذكراتي الكلبية.

لم أتوقفْ ليوم واحدٍ عن الكتابة والقراءة والتفكير بالكلب، وفي ظرف ستة أشهر أنهيتها كمسودة أولى. لم أكنْ أحتاج للكثير من التفكير، فقد كانت الرواية تكتب نفسها بنفسها، ذكريات واسترجاعات واستشهادات من هنا وهناك ونُباح أمرّره في كل أوقات فراغي. رؤية ذلك الكلب، ومعرفتي بالمنطقة الغاصة بالهاربين والمهجرين والمنفيين (وهل هناك بلد لم يخضعْ لذلك!)، ساعدتني كثيراً بسرد الوقائع العجيبة والأحداث الغريبة التي صاحبت الكلب العراقي المدعو ليدر، بطل الرواية ـ المذكرات

هل أكون صريحاً لو قلت إنَّ كلَّ ما جاء فيها لم يكنْ متأثراً بنماذجَ سابقة؟ الحقيقة أنَّني كثيراً ما رغبتُ بكتابة تُمازج ما بين حكايات الحيوانات المعروفة وبين الرواية الحديثة، لم أعدْ أجدُ فاصلاً ما بين الأجناس الأدبية، من هنا رحتُ في موجة حرية تامة في الكتابة واللَّصق والتماوج ما بين حالة وأخرى. من هنا، كنت أتصوّر كلبي المدعو ليدر وهو يزاحم كلَّ تلك الكلاب التي سبقته بسرد حيواتها: كلاب ثربانتس وتشيخوف وأو هنري وغيرها الكثير.

الأهم في كل ذلك أن هذا الكتاب قد أخرجني من تلك الغصة الكبيرة التي اجتاحتني ومنعتني من الكتابة، أخيراً أجدُ ما أمسك به كي أدوّنَ رأيي الحكائي عمَّا يدورُ في العراق. الذكريات تجرّني لأعوام الدكتاتورية الصّدّامية وأحداثها الجِسام حتى الدخول الأميركي والمجازر التي عاشها ناسي ومانزال نعيشها في كلّ حدثٍ جديد وكأنَّ العراقَ لعبةٌ مدورةٌ لا تنتهي حتى تبتدئَ من جديد.

كان ذلك الكلب الحكيم قد رافقني طوال تواجدي قرب خط ساخن، ولعل تلك الاستجابة كانت نوعاً من التواصل مع الحالة. كنت في كل مرّة أفشل بإنهاء رواية (كنت قد كتبت قبلها ثلاث روايات لم تكتملْ أو لم أرغبْ بإكمالها!) أحيلُ المسألة للرأس، رأسي المليئة المكتظة بكلّ شيءٍ ما عدا الكتابة نفسها، فكنت أرجئ كلَّ شيءٍ للمستقبل أو للنسيان. مع (مذكرات كلب عراقي) أدركتُ أنَّ كلَّ محاولاتي العابثة بكتابة عمل كبير أو رواية يُشار لها، شيءٌ من السّفه والنفاق الكتابي، لأنَّ لكلّ عملٍ خاصيةً أو أنَّ كلَّ عملٍ بوصفه شذرةً مُكمّلةً لأعمالٍ أخرى، وبالتالي الكتابة لا تعني مسبقاً أنْ تكتبَ كلَّ ما ترغبه وتتمناه.

الآن وصورة ذلك الكلب الهزيل الذي التقيته صدفة في جنوب لبنان، أجده قد جاء لي بما لا يمكن أن أحزره في كلّ كتاباتي السابقة والتالية، ما معنى تلك الصورة وما معنى تلك الرغبة بالكتابة عنه والتي لم تأتِ إلّا من تلك المصادفة. لا أذكرُ مَن قال إنَّ الواقعَ أكثرُ خيالاً من العالم الروائي، وهي حقيقة، ما نحتاج له بعد ذلك سوى أن نكونَ جِدّيين ونشرعَ بالكتابة، فالأمل بحصول حدثٍ أكبرَ أو موضوعٍ أوسعَ، ليس أكثرَ من خيال لا نستطيعُ التواصل معه أو اللّحاق به. من هنا وجدتني محاصراً بعشرات الشخصيات الكلبيّة

وهـي تحاورنـي وتسـاعدني علـى سـرد وقائعهـا، وأنـا مَديـن لهـا أكثـر ممّـا مَديـن لشـخصيات بشـريّة التقيتهـا ولـم أعثـرْ حتـى اليـوم علـى خيـط وقائعهـا كـي تسـاعدَني بكتابـاتٍ قادمـة.

تصـورت الوضـعَ أنَّ العمليـةَ تنتهـي مـا أنْ تنتهـي الحكايـة كلَّهـا. الصـدق أقـول أنَّنـي فـي كلّ تجوالاتـي اليوميّـة أتعثـرُ فـي زوايـا المدينـة بنمـاذجَ تراقبُنـي وتقـدحُ أعينُهـا بشـرارةٍ تجرُّنـي كلُّ لحظـات التفكيـر بمـا يمكـن أنْ تكـونَ عليـه تلـك الشـعلة.

إنَّ مقولـةَ أوسـكار وايلـد تلـك كانـت ولا تـزال الحكمـة الرئيسـة بكتابة أيّ كتـاب، هـو لـو وجـده الآخـرون غيـرَ نافـع ووجدتـه أنـت أكثـر نفعـاً مـن غيـره، المهـم أن تضـعَ فيـه كلَّ جِدّيتـك ورغبتـك الكتابيـة، أمـا مـا يتبقـى فحكمـه لـلأوراق البيـض والقـدرة علـى التخيّـل والتواصـل.

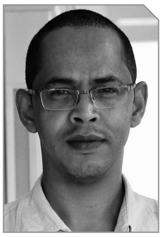

كيف عبرتُ «الأنهار العكِرة»؟

عماد البليك *

ربّما كأغلب الكُتّاب فقد جاءت روايتي الأولى «الأنهار العكِرة»، مكتوبةً على هاجس وأرق الحنين إلى الوطن، تلك النوستالجيا القاتلة التي يرى فيها بعض الناس تحريراً من الاشتياق والوله وبداية لإدراك معنى الذات، فيما يرى فيها آخرون العكس أنّها تحدّ من الإبداعية وتجعل الكاتب أسير ذكريات مغلقة لا يمكن التحرّر منها. وبغضّ النظر عن ذلك، فإن تجربتي مع الكتابة أثبتت أنّ الأدب والفنون عابرة للقوميات والحدود والزمكانيات.

في تلك الأيام من عام 2001 إلى 2003 كنت أقيم في العاصمة القطرية؛ الدوحة، التي وصلتها من الخرطوم، لكي أعمل في مجال

* كاتب وروائيّ من السودان من مواليد 1972 صدر له 16 مؤلفا ما بين الرواية والنقد الأدبي والفكر عامة، وقد صدرت له أول رواية «الأنهار العكرة» في 2004 وآخر أعماله الصادرة هي «وحش القلزم» عن أطلس للنشر بالقاهرة في يناير 2017. درس هندسة العمارة بجامعة الخرطوم ويعمل بمجال الصحافة في الخليج، ويقيم حاليا في مسقط بسلطنة عمان.

الصحافة، وهو الخطّ الذي سرتُ فيه برغم أنني درست هندسة العمارة، مع أنه ليس عندي من فواصل كبيرة بين هذه المجالات.

ولأنّني كنت أقضي الليل بعد عودتي من الصحيفة وحيداً في أغلب الأحيان، فقد بدأت في تسجيل خواطر متناثرة عن ذلك الزمن «السرمديّ» الغائب، عن تجربة الأرض ومسقط الرأس، وكان دافع الكتابة أكثر ما جاء مشفوعاً بالحنين، والتخلص من ثقل الانتماء بالتعضيد منه، المزيد، حيث كان لابدّ لي من اكتشاف وطن بديل في أرض النصّ، ذلك الحقل الشاسع والرائع والقاسي على النفس أحياناً.

وبدأت أفلح أرضي، أكتب، مستحضراً صورة تلك المدينة/ البلدة، التي جئت منها بولاية نهر النيل بشمال السودان، قبل أن يتقسّم إلى بلدين بفعل الزلازل السياسية التي عصفت به وجعلته يتشرذم لوطنين، شمال وجنوب.

في «الأنهار العكِرة»، وحيث تبدو رمزية الأنهار جليةً، فالسودان هو أرض الأنهار العديدة، وحيث «العكّار» يشير إلى موسم محدّد طالما بقي بذاكرتي إلى اليوم، عندما يأتي الفيضان وينهمر النهر بلا هوادة على الضفتين، فيأخذ ما أمامه من الزرع والأرض فيما يعرف بـ»الهدّام»، وبلا سابق إنذار أو عهد، بما في ذلك أرواح البشر.

لكن قصة «الأنهار» لم تكن هي حكاية الماء، بل هي أيضا سردية الصحراء التي يشقّها النهر وهو يتّخذ طريقه عبرها، بحيث تكتب أكثر من قصة، وحيث تنمو الأراضي الجديدة كتلك التي جاءها صنّاع الذهب ومنقّبوه من شتّى بقاع أفريقيا ليكتبوا تاريخاً جديداً لهذه العتامير، وهو مسمّى الصحراء هناك.

وللغرابـة فإنّـي كتبـت عـن ذلك قبـل أن يحـدث فعليـاً، ليس لأيّ سـبب غيبـيّ أو غرائبـيّ، بـل لأنّ هـذه الأرض كانـت فـي القـدم أيـام الحضـارات الكوشـية القديمـة، موطنـاً لممالـك الذهـب الـذي يؤخـذ إلـى بقـاع الدنيـا المختلفـة، مـع ريـش النعـام وسـنّ الفيل وأسـواق النخاسـة سـيّئة السـمعة.

كانـت «الأنهـار العكِـرة» بالنسـبة لـي تجسّـد تجربـة الكتابـة الحـرّة والمتحـرّرة مـن الـذات، بقـدر مـا لهـا علاقـة بهـا وتأخـذ مـن معيـن التجربـة، والسـبب أنّنـي كنـت قبلهـا قـد كتبـت فـي السـودان ومنـذ مرحلتـي الثانويـة والجامعـة، مـا لا يقـلُّ عـن أربـع تجـارب روائيـة، أقـول إنّهـا ليسـت إلّا تماريـن علـى كتابـة النصـوص؛ السـرديات، وحيـث كان التأثّـر بآخريـن أقـرأ لهـم فـي تلـك الآونـة، أمثـال: نجيـب محفـوظ، الطيـب صالـح، جورجـي آمـادو، غابرييـل غارسـيا ماركيـز، أرنسـت همنغـواي، جـون شـتاينبك، وغيرهـم بـلا حـدود.

كتبـت آنـذاك روايـات لا زلـت أتذكّـر أسـماءها، مثـلاً «البتـرول»، «توأم التبـر»، «الكمينـة» - وهـي مصنـع بجـوار النهـر يتـم فيهـا حـرق الطـوب الطينـي ليصبـح صلـداً وقويـاً ويعـرف باسـم الطـوب الأحمـر ليسـتخدم فـي بنـاء بيـوت النـاس مـن ميسـوري الحـال، وكنـت أكتـب عـن تجربـة حقيقيـة عشـتها فـي صِبـاي- أيضـاً «أحـلام قريـة صغيـرة متوهجـة تنتظـر صِباهـا»، عـن طالـب قتـل يـوم فـي المظاهـرات بجامعـة الخرطـوم فـي فتـرة انتفاضـة شـعبية مزعومـة، يتّضـح فيمـا بعـد أنّهـا خـواء، وكنـت أسـتحضر صـورة الثـورة المسـمّاة 6 أبريـل 1985 التـي أطاحـت بحكـم جعفـر النميـري، أثنـاء رحلـة عـلاج كان يقوم بهـا إلـى الولايـات المتحدة.

برغـم أن تلـك التجـارب القديمـة، كانـت صادقـة فـي عاطفتهـا وفـي خواطرهـا المنشـورة، إلّا أنَّنـي لـم أرهـا ضروريّـة فـي اللّحظـة التـي شـرعت فـي كتابـة «الأنهـار العكِـرة» وهـو الاسـم الـذي تحـدد لـي

سلفاً قبل الشروع في النص، ولد ذات برهة وبلا مقدمات، لكي يلخّص لي أزمنة أكاد أقبض عليها قبل أن تُطوى أو تنسى، رغم أنّني كدت أحياناً أغيّر اسم الرواية إلى اسمين آخرين، الأول «زمن الهوتميل»؛ البريد الإلكتروني الذي كان سيّد زمانه، ولأنّ بطل الرواية كان يستخدمه لمراسلة أصدقائه في البلد البعيد الذي جاء منه، ولم يكن ثمّة وسيلة أرقى ولا أسرع وقتها من الـ»هوت ميل»، وقد استحضرته في فضاءات النصّ، بل أن أحد شخصيات الرواية - لا أميل لكلمة بطل أو أبطال - كان قد أنشأ مقهى للإنترنت في البلدة القديمة، وكان النساء يراسلن أزواجهن المغتربين في الخليج وأمريكا وأوروبا، بحيث يقوم صاحب المقهى بتنضيد الرسالة وإرسالها وكان بالتالي يطلع على أسرار البيوت، لكن هذا ليس موضوع الحكاية كاملة، فهو ليس إلّا وجهاً ممّا كنت أودّ الكتابة عنه.

وقد جاء الاسم الثاني المنافس «دفتر الأحلام». فقد بدت لي الحياة في تلك الآونة وأنا أصارع قدراً شخصياً، بأن أقاوم العلاقة ما بين عالم اليقظة والحلم، وحقيقة ذاتي؛ من أكون في هذا العالم، وأنا أكتب.. كأنّها - أي الحياة - باتت كلّ هذه الصور، ولم تعد؛ ما هي؛ إلا لحظة التخييل العميقة التي يصعب التكهّن بها، بحيث نجد أنّنا لا نكتب في واقع الأمر، بل نحن لا نفعل سوى أنَّنا نحاول أن نتمنّى؛ أن نقترب من الواقع الشخصي لنا، وهو كما يدرك «أهل الفن» ليس له أيّةُ علاقة بالواقع المغاير و»المنطقي»؛ «المفترض». وبين الاثنين - الواقعين - تصبح الحياة أشبه بالخيال أو الحلم، وتصنع الكتابة دفترها المنسيّ والمؤجّل.

ثم كانت «الأنهار العكِرة» هي التي انتصرت اسماً ومضموناً وسقطت التجارب القديمة، باتت مجرّد مسوّدات محترقة في الذاكرة،

وجاء فصل من الرواية باسم «أحزان الأنهار»، وآخر باسم «دفتر الأحلام» وأخيراً «الطّاعة»، وهي كناية عن الرضى والامتثال للأقدار.

وإذ كنت قد كتبت في الفصل الأول عن قصة الراوي الذي ربما يشبهني، لكنّه ينفكّ عني بمجازات النصّ وحقيقته الأخرى المغايرة والموازية، فقد كتبت في الفصل الثاني عن عوالم البلدة القديمة وعودة مفترضة للراوي إلى هناك لم تحصل فعلياً، وهي ثيمة استخدمت كثيراً في نصوص المهاجرين حيث لابد للبطل أن يعود للديار ذات يوم، ليجدَ أنّ كلّ شيءٍ قد اختلف وأنّ عالماً جديداً يُنسج في المكان وحيث لا فكرة تشبه الأمس تقريباً، وقد كتبت ذلك العالم، طبعاً؛ بطريقتي الخاصة.

أما «الطّاعة» فقد كانت أشبه بالمناجاة أو المناغاة التي تماثل صوت الأرض الأم وهي تناغي طفلها وتلاعبه. هذا الطفل الصغير ليس إلا أنا، فمهما حاولت أن أبدو مختلفاً أو أسير إلى فضاء آخر من العالم، كان ذلك الراوي الغائب والحاضر يسجّل ما يشبه مدوّنات «الفتوحات المكيّة» أو سرديات قديمة ما، ليس من تلخيص أو استحضار لموقعها في حيز بعينه في التاريخ ولا الذاكرة ولا اللحظة. كان ثمة نصّ حرّ ينفتح، يتوشّح بثوب قصيدة نثر، في اللامحدّد من الوجود.

وهناك سوف أتذكّر تماماً تجاربي الشعرية وكيف أفادتني، برغم أنّي توقفت عن تلك العلاقة التي تقوم مع الشعر على أنّني شاعر مزعوم. فأنا لست شاعراً، ولم يعد الشعر يعني لي سوى الحياة بكليتها الشاملة، بحيث يصبح المزاج الشاعريّ عندي روحاً إنسانية، تغافل العالم كلّه وتتلاعب به وتناغيه.

كانت لغة الشعر قد بسطت أو فردت طريقها في «روايتي الأولى»، بحيث باتت من أحب الأعمال إليّ، حتى لو أنّ تجربة

الكتابة الخاصة بي، انفتحت بعدها نحو فضاءات المجرّب والجديد والانسياق للقضية الإنسانية عامة، لكن الجنين الأول، البكر، دائماً يكون له مرحه الخاص وشراسته المستحبّة ونوره الأبديّ.

نشرت «الأنهار العكِرة» بالقاهرة والخرطوم عن طريق ناشر سودانيّ، هو الشركة العالمية للطباعة والنشر، وكنت قد التقيت مديرها ومالكها الشيخ عووضة بمعرض الدوحة عام 2003 وعرضت عليه المسوّدة ووافق على نشرها، بعد ليلة من المراجعة والقراءة.

وقال لي القول المكرور لكلّ سوداني يقتبل على درب الإبداع الروائيّ: «أرى فيها روح الطيب صالح»..

قلت له: «نعم كلنا أبناء الطيب»..

وفي العام التالي في مارس/ أبريل 2004 بمعرض أبوظبي للكتاب كانت أول رواية لي قد رأت النور، وسافرت للمعرض من الدوحة لكي أرى مولودي الأول، لكن ثمة مصادفة أقوى كانت تحدث، وهي أنّ روايتي الثانية «دنيا عدي» وهذه قصة أخرى بحالها؛ وكنت قد سلمتها لناشر من مصر؛ كانت قد رأت النور في المعرض نفسه، فحملتهما معي، معاً، إلى الدوحة عائداً بفرحتين.

بيني وبينَ «نوميديا» سوابق عشق!

طارق بكاري *

صِنَـارةُ الكلمـات كانـتْ تصوبنـي نحـو الذاكـرة، قـد نكتـبُ فـي أعمالنَـا مـا نشـتهي، لكـن أعمالنَـا الأولـى تكتبنَـا لا كمَـا شئنَا بـل كمـا شـاءت الذاكـرة، والذاكـرة لا سـلطَانَ لنَـا عيهَـا. مخطـئ مـن يعتقـد أنّ كاتبـاً فـي بدايـةِ مسـاره قـد يكتـبُ مـا يريـدُ، يـدُ الذاكـرة تحـرّكُ بسـخطٍ أعماقنَـا، أظافرهَـا تنكـشُ جراحنَـا التـي خلنَـا أنهـا اندملـتْ، لذلـك نكتـبُ أوجاعنَـا علـى أوجـاع أبطـالٍ مـن ورقٍ، ومـن خلالهـم ننـزفُ، ننتحـبُ، نحتـجّ، علـى نحـو مشـفّر لا يخـدشُ كبرياءَنَـا!

لطالمَـا اعتقـدتُ أنَّ العمـلَ الأول كالحـبّ الأوّل، نشـيرُ إليـهِ بطيـش وحماقـة، ولا نبتعـدُ عـن ذواتِنَـا إلّا بالقـدر الـذي يسـمحُ لنَـا بتمويـهِ الآخريـن، وحملهـم علـى الاعتقـادَ بـأنَّ المعنـيّ بالروايـة غيرنَـا، لكـن فـي الصميـم، لا نكتـبُ إلا مـا نحـنُ عليـهِ أو مـا اشـتهينَا أن نكونـهُ دونَ أن نجـدَ

* روائـيّ مـن المغـرب. لـه فـي الروايـة «نوميديـا»، «مرايـا الجنـرال». اختيـرت روايتـه الأولـى «نوميديـا» ضمـن القائمـة القصيـرة لجائـزة البوكـر العربيـة فـي دورة 2016م.

إلـى ذلـك سـبيلاً. فـي «مـراد الوعـل» بطـل روايـة «نوميديـا» الكثيـر منّـي، لكـن فيـهِ أيضـاً أشـياء تمنّيـتُ لـو تكـونُ فـيَّ.. الإنسـان دائـمُ النقـص، وبالفـنّ فقـط يمكـنُ أن نضـع سـيناريوهات محتملـة لمـا يمكـن أن نكـونَ عليـهِ لـو بلغنَـا حالـةَ الكمـال.

علـى أنَّ بينـي وبيـنَ المـكان آسـرةَ عشـق، فـي الأخيـر أنَـا أنتمـي إلـى الفضـاء الأمازيغـي، وقريـةُ «إغـرم» بالنسـبةِ لـي مثلمَـا هـي بالنسـبة لمـراد عشـق ملتبـس بالأمومـة، مثلمَـا أنَّ هنـاكَ أماكـن لا تـكادُ تحشـركَ بيـنَ أشـداقهَا حتّـى تحـسّ بهَـا تدفعـكَ بعيـداً عنهَـا، هنـاكَ أماكـن محايـدة لا تقابلـكَ بعاطفـةٍ، وأخـرى تسـتنبت لنفسـهَا فـي أعماقنَـا حبًـا مـن نـوع مـا، و»إغـرم» مـن الصنـف الأخيـر، لأنهَـا ورّطتنـي فـي حبّهَـا آثـرتُ إلّا أنْ أورّطَ بطلـي فـي حبّهَـا وأمتـدحَ مـن خلالـه المـكان، جماليـة المـكان، وأسـتنطقَ مـن خلالـهِ ذاكـرة المـكان.

هـي قريـةٌ جميلـة، لكـنّ أجمـل مـا فـي «إغـرم» أنَّ العزلـةَ أنبتـتْ فيهَـا حالـة مـن الأدبِ البكـر، حكاياتهَـا الأمازيغيـة، يرويهَـا الأبنـاء عـن الأجـداد، حكايـات لا تقـلّ جمـالاً عـن «ألـف ليلـة وليلـة» أو «الإليـاذة» و»الأوديسـة».. أو غيرهَـا مـن روائـع الأدب العالمـي. لكـن الملفـتَ للنظر، والجميـلَ فـي آن، أنَّ لحكايـات «إغـرم» سـندٌ واقعـي.. لا بـدَّ أن تجـدَ فـي فضاءاتهَـا مـا يسـندُ الحكايـة ويقـوم دليـلاً علـى أن يـروى كانَ حقيقـةً فـي مـا مضـى. رأيـتُ فـي حكايـات «إغـرم» الأمازيغيـة طفولـة الأدب، لذلـك لـم أتـردّد فـي اسـتغلالِ كنـزٍ مـن الحكايـات التـي شـحذت خيـالَ الطفـلِ الـذي كنتـهُ، ووجدتُنـي أزجُّ بـهِ فـي سـياقات روايتـي لئـلّا يطمـرهُ النسـيان مـن جهـة، ولأننـي وجـدتُ فيـهِ مـا يغـذي حكايـة «مـراد الوعـل»!

مثـلَ «مـراد الوعـل» كنـتُ أصيـخ السـمع إلـى حكايـات الجـدّ فـي الليالـي البـاردة والعائلـة، كل العائلـة متحلّقـة حـول فـرن يهـدر بتعابيـر

غامضة، لكن عكس كلّ الأحفاد لم يكن السرد تسلية ما قبلَ النوم، كانت كلّ حكاية تُشعلني أكثر وتدفعني للاستزادة. مثل «أوداد» تعرّفتُ على الحكاية وابتليت بسحرهَا قبل أن أعرف القراءة والكتابة.

علمتني «إغرم» وحكاياتُهَا التي لا تنتهي أنَّ هؤلاء البدو البسطاء؛ الأمّيين في الغالب، يعشُشُ في أعماقهم روائيّ يجهلونهُ، هو مَن يملي عليهم التفاصيل، هو من يحرّضهم على تغذية الحكاية بكذبات ناصعة البياض. تعلمتُ من «إغرم» أنَّ المجتمعات الأشد بدائية وعزلةً لا تخلو من أدب، لأنَّ الحكاية في «إغرم» ضرورية كالماء والهواء، كالأرض والسماء وليستْ ترفاً زائداً.

في مثلِ سنّ مراد تركتُ إغرم مضطراً لا بطل، هو يحملَ صرةَ أيّامه وأحمل في قلبي أنَا كمشةَ ذكريات وحكايات، هي كل رصيدي وقتهَا من الأدب! في أعماقي كانَ هناكَ حدس بأنني لا بدَّ عائدٌ إليهَا برواية، الأمل كانَ ناهضًا في القلبِ لكن الرؤيا كانت غائمة، فقط عندما بدأت أحتكّ بنماذج الأدب المكتوب بدأت تختمرُ في أعماقي تلك الرغبة ورويداً رويداً بدأت ملامحُ روايتي الأولى تتشكلّ، من خيباتِ بدايتي، من المآزق التي وجدتُ نفسي في كل مرّة مدفوعًا إليها، نخطئ حينَ نعتقد أنّ الحكاية تبتدأ أول ما نشرع في الكتابة، الحقيقة أن مرحلة الكتابة هي بداية النهاية.

كتبتُ لأستلَّ من روحي شظَايا الوحدة، كنتُ أجدُ في الكتابة إينَاساً من نوع ما، وكانَ يكفي أن أمعنَ في استرداد الماضي لأفرح، كانَ يكفي أن أتقمّصَ دور ربٍّ و أنا أديرُ عوالمَ الرواية لأفرح. أعتقد بثقةٍ أنّ الكتابة تغذّي نرجسيّة الكاتب وتشبعُ غروره الشخصيّ.

على أنني كنتُ دائمَ الاعتقادِ بأنَّ الكتابة كثافةُ سحرٍ، وأنهَا مطالبة بأن تقول مسكوتَ الإنسانية قبل منطوقهَا. في أدغال النفسية البشرية

مناطـق بكـر لـم تعتقلهَـا نصـوص ولـم يطأْهَـا حـرف، والرهـان بالنسـبة لـي كانَ سـبرَ أغـوار النفس البشـرية، كثيـرة هـي الأشـياء التـي نحـس بهَـا جميعًـا دونَ أن تجـدَ إلـى الأدب سـبيلاً، وأعتقـد أنَّ أحـد مهـام الروائـي والمبـدع عمومـاً أن يترجـم تلـك الأحاسـيس التـي تخامرنَـا دونَ أن نجـدَ لهَـا عبـارات مناسـبة.

لا نسـيرُ أبعـدَ مـن نـصّ ألصقـه القـدر أو الـرّبّ أو الصدفـة بظهـور قلوبنَا، هـذا مـا تقولـه حكايـات «إغـرم» الكثيـرة، الإنسـان حـرّ بالقـدر الـذي لا يجعلـهُ يتمـرّد علـى نصّـه. والدنيـا مسـرح كبيـر ومـا نحـنُ إلّا ممثلـونَ نتقفّـى أثـر نـصّ قـد خـطَّ سـلفاً. العالـم يسـيرُ وفـقَ منطـق مبهـم وخـاص، نظـام مـا يحكـم الأشـياء مـن حولنَـا، قـد يكـون مشـيئة الـرب، القـدر أو الصدفـة، لسـتُ أدري، مـا أشـعرُ بـهِ كروائـي وأكادُ أصدقـهُ، أنَّ نظامـاً مـا يحكـمُ سـيرة كلِّ إنسـان، وأننَـا لسـنَا أحـرار إلا بالقـدر الـذي لا يفسـدُ مسـاراً خُـطّ لنَـا فـي هـذه الدنيَـا. والحقيقـة أنَّ حيـاةَ «مـراد»، بـؤس «مـراد» وتمزقاتـه النفسـية تعكـس بوضـوح هـذه الحتميـة التـي لا فـكاك منهَـا.

خلـف «مـراد الوعـل» كانـتْ «نوميديـا» بنـتُ الوهـم والأنثـى المشـتهاة هـي رديـف المـكان، أو لكأنهَـا «إغـرم» وقـد حـلّ فـي ثـوب بشـري. مثـلَ «مـراد الوعـل» سـعتْ إلـيّ وهمَّـتْ بـي، لـم أوتَ حـظَّ يوسـف، ولـم أرَ برهـانَ ربّـي، رأيـتُ - طفـلًا- مشـروع حكايـة.. وأحسسـتُ - بعـد أن دفعتنـي بعيـداً عنهَـا «إغـرم» - أننـي لا بـدَّ أن أعـود إليهَـا بروايـة! وكانـت «نوميديـا».

ليس الظلام دامساً، ثَمّةَ ضوءٌ فيه..

فوّاز حدّاد *

كان المنظرُ الذي جاءني عفوَ الخاطر، قد رسم بدايات روايتي الأولى. المنظر هو: امرأة تقف عند مدخل دكان في سوق قديم، تُصوّب نظراتها إلى مجرد ظلٍّ يتململُ في عمق المكان، تتبادل معه بضع كلمات يبعثرها الهواء الراكد، ثم أرى الظل يتقدم نحوها مشطوراً بالضوء، بينما العتمة أسدلت أستارها على رأسه وكتفه. من هذه المرأة، أو هذا الظل الذي أصبح رجلاً؟! ما الكلمات التي قيلت؟! كأن ما تراءى لي كان هِبة من الخيال، ولقد أظهرت امتناني له بكتابة روايتي «موزاييك» خلالها لم يتخلَّ عني.

* روائيّ سوريّ من مواليد دمشق 1947، حائز على إجازة في الحقوق من جامعة دمشق. تفرغ للعمل الروائي كلية في عام 1998، له في الرواية: «موزاييك ـ دمشق 39» عام1991، «تياترو 1949» عام1994، «صورة الروائي» 1998. «الولد الجاهل» 2000، «الضغينة والهوى» 2001. «مرسال الغرام» 2004، «مشهد عابر» 2007، «المترجم الخائن» 2 008.»عزف منفرد على البيانو» 2009، «جنود الله» 2010، «السوريون الأعداء» 2014، «الشاعر وجامع الهوامش» 2017. اختيرت روايته «المترجم الخائن» ضمن اللائحة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية «البوكر» لعام 2009، كما رشحت روايته «جنود الله» لجائزة روكرت الألمانية لعام 2013م.

لـم تكـن «موزاييـك» عملـي الأول، سـبقته قصـص وروايـات، شـكلت مجموعـة تجاربـي طـوال سـنوات عديـدة، لـم أنشـرْ أيـاً منهـا. كانـت غيـر صالحـة للنشـر، فلـم أحفـلْ بهـا، فيمـا بعـد تخلّصـت منهـا. وإذا كنـت اعتبـرت «موزاييـك» روايتـي الأولـى، فليـس لأنّهـا حظيـت بالنشـر، بـل لأنّني اكتشـفت أسـلوبي فـي كتابـة الروايـة، وهـو الأسـلوب الـذي سـيحمل بصمتـي، وتحـت غطائـه سـتكون محاولاتـي التاليـة فـي التجريـب، كمـا أفهمـه، مـع كلِّ روايـة.

كنـت قـد كتبـت المشـهد الـذي أتحفنـي بـه الخيـال علـى أنـه مطلـع لقصـة قصيـرة، بـدأت معـه رحلتـي، مـن دون معرفـة إلـى أيـن سـيقودني، لمجـرد خاطـرة أننـي سـأكتب عـن حـبٍّ مسـتحيل، لـم أكـنْ أدري هـل سيتحقق؟ كانـت جاذبيتـه فـي اسـتحالته. لا يُشـترط أن يبـدأ الكاتـب مـن فكـرة منجـزة، ربمـا كمـا حصـل معـي مـن لمحـة اسـتهوتني، وكان لهـا ألا تـؤدي إلـى روايـة ولا إلـى قصـة قصيـرة، لكننـي تعلقـت بهـا، ربمـا لعـدم توفـر غيرهـا.

تـراءى لـي أنـه لا يمكـن أن يكـونَ هـذا المشـهد فـي تسـعينات القـرن الماضـي، لا الزمـن ولا البيئـة تحتمـل هـذا الحـب، الحـب المسـتحيل لا يحـدث إلّا فـي بيئـة مغلقـة لهـا تقاليدهـا الراسـخة، بينمـا كانـت دمشـق فـي تسـعينيات القـرن الماضـي تشـكو مـن عـدم اسـتقرار أخلاقـي، الفسـاد ضـارب أشـبه بجائحـة، والصـراع علـى العمـولات والمنافـع، الأجـواء المخابراتيـة طاغيـة علـى بيئـة أصابهـا الخلـل وتعانـي مـن التغييـر، وتجهـد فـي المحافظـة علـى أخلاقياتهـا. فراوحـت فـي ظـلام، وتوقـف عملـي عليهـا. بالمصادفـة البحتـة كنـت أقـرأ عـن تاريـخ سـورية أيـام الانتـداب الفرنسـي، فاسـتوقفني دخـول المنـدوب السـامي «بيـو» إلـى دمشـق فـي يـوم صقيعـي، تسـبقه فرسـان التجريـدة المغاربيـة قاصـداً

مبنى المندوبية الفرنسية في الصالحية، يمرُّ في طريقه على ساحة المرجة، المحلات مغلقة، لا حركة سير، حركة المارة تكاد أن تكون معدومة. الإضراب شامل، كان استقبالاً بارداً.

شكل دخول «بيو» إضاءةً للمشهد المظلم، وأصبح لما بدا أنه رواية في طريق البزوغ، إحداثيات تأطّرت زمانياً في عام 1939، أما المكان فدمشق، عشيّة الحرب العالمية الثانية، ما شكل الخلفية التاريخية، التي ستلعب دوراً في تحريك الحدث السياسي من حيث انعكاسه على الحدث الروائي وشخصيات الرواية.. مع أنّ التاريخ لم يكنْ في حسباني أبداً، كما أن الروايات التي لها علاقة بالتاريخ، لم تكن تروق لي. أتخيل أن للعقل الباطن دوراً في خياراتنا، لو كان عقلي الواعي شغّالاً لما تورّطت إلّا في الراهن.

اليوم أدركُ أنَّ تشكّلَ الخطوطِ الأولى للرواية لم يكنْ بإرادتي، كان تكوّنُها مديناً للمكان الدمشقي، ولذاكرة خشيت أن تتلاشى في زمن كان النظام السياسي يقطع مع ما قبله، وكأنّ تاريخَ سورية يبدأُ مع هيمنة البعث على السلطة، ويترسخ إلى الأبد مع «الحركة التصحيحيّة». ذلك ما فسّرَ ظهورَ الرواية مختمرةً، كانت فعلَ تأكيدٍ للذات السوريّة من خلال البشر والمكان والأشياء. كانت إحياءً لدمشق في عام 1939، وإشارةً إلى تاريخ معتّم عليه آن له أنْ يظهرَ، لا أنْ يبقى أسيرَ الأقاويل، كأنه لم يكن إلّا في تداعيات ذاكرة أجهدها الزمن والخفاء، لتاريخ مهمل، وقد يضيع، لكّنه كان عسيراً على النسيان.

ما استهواني في زمن الرواية هو إمكانية تمريرها في الرقابة، كان كل ما كتبته من قبل، يستحيل نشرُه لتعرضه إلى آلية النظام في تكميم الأنفاس، وتدخل أجهزة الأمن في الكبيرة والصغيرة، كانت أيُّ روايةٍ عن الحاضر تكتب إمّا في تبجيل النظام ودوره في الوحدة

والحريـة والاشـتراكية والنضـال ضـدّ الإمبرياليـة العالميـة، أو اسـتعمال الرمـز فـي نقـد مظاهـر السـلطة القمعيـة.

أعتقـد أن الروايـة الأولـى، إنْ كانـت ناضجـةً، سـوف تكـون التجربـة الكبـرى والأهـم فـي مسيرة الكاتـب الروائيـة، فهـو لا يكتشـف أسـلوبه فقـط، بـل ويـدرك أهميـة التعامـل مـع اللغـة، وتكويـن الشـخصية، وتصاعـد الحـدث، وتشـابك الأحـداث والخطـوط.. كل هـذا وغيـره، لا يتجسّـد إلّا فـي القـدرة على تشـييد معمـار روائـي يشـبكها كلَّهـا علـى أنّـه المعنـى الأعمـق للروايـة الـذي لا يكتمـل إلّا فـي اجتمـاع الـكل، كمظهـر مـن مظاهـر الحيـاة نفسـها التـي لا تتشـكّلُ عناصرُهـا كلٌّ علـى حـدة.

لا يضـع الروائـي أفضليـات ولا أولويـات، يكتـب بالحـدس وبالخيـال، وعينـه علـى الواقـع، يستشـعر كلَّ مـا يعترضـه، وينجـزه حسـبما يتصـوره فـي ذهنـه.. الروايـة فرصـة لا تتكـرر، فـي هـذه الفسـحة عليـه أنْ يعـيَ مـا يريـد كتابتَـه، ومـا يريـد التعبيـرَ عنـه.

فـي عزلتـه يتعايـش الروائـي مـع شـخصيات، لا يتملكهـا تمامـاً، يشـعر بأنّهـا تتمـرد عليـه، وقـد تنمـو بمعـزل عنـه، شـخصيات لديهـا حياتهـا وأفكارهـا ونوازعهـا ونزواتهـا، الكاتـب ليـس بديـلاً عنهـا، مهمـا حـاول التماهـي معهـا، بقـدر مـا ينبغـي أن تكـون هـي نفسـها، وليـس مـن الغريب أنْ يقـولَ الكاتـب إنّ شـخصياتِ روايتـه تفاجئـه، أو إنّـه يلهـثُ وراءهـا ليدركَهـا، أو يحـاولَ تفسـيرَ تصرفاتهـا، وأنّهـا تضعـه فـي حيـرة، وربمـا مـآزق إزاءَ خياراتهـا، بـل ويصـل الأمـر إلـى محاولـة التكهـن بمـا تفكّـر فيـه، هـي أيضـاً تخفـي نواياهـا عـن كاتبهـا، لذلـك لا بـدّ مـن التحـاور معهـا بحريـة مطلقـة، إلّا إذا أراد الكاتـب التحكـمَ بالروايـة، ويُسـيّر الحـدثَ كيفمـا يشـاء، ويضـع الـكلام فـي أفـواه أبطالـه، مـا يحولهـا إلـى روايـة ذهنيـة.

لا يعني ما أنتهجُه في رواياتي أنّه الطريقة المثلى، وإنّما الطريقة التي أتحسّس بها صناعةَ الرواية، وأتفهم ما يطرأ عليها. هناك روائيون اعتادوا أنْ تختمرَ الرواية في أذهانهم، وعندما تصبحُ جاهزةً يكتبونها، وحصلوا على نتائج ممتازة. بالنسبة إليّ، حاولت هذه الطريقة مراراً، وفكرت بالرواية على هذا المنوال، بحيث اكتملت وجهزت بشكل كامل. عندما بدأتُ بالكتابة أحسّست أنّني مجردُ منفذٍ لما فكرت فيه، لا مفاجآت، ولم أكتشفْ شيئاً، بدا كلُّ ما أكتبُه عبارةً عن تسويد صفحات، وفي الوقت نفسه مغلقاً تماماً.

علمتني روايتي الأولى، ألّا تكونَ الرواية منجزةً في رأسي، مجرد أنّ لديّ فكرة غائمة غير واضحة، وشخصية أو شخصيتين، بالكاد أستطيع تلمّسهم، وشيء ما عن المشهد الذي سيتحرّكون في داخله، وعلى دراية نوعٍ ما بالمناخ الاجتماعي والفكري، وشيء ما أريد قوله وليس على بصيرة كاملة به، لكنّه ضروريّ.. ما يشكّلُ بدايةً رائعةً، ليس الظلام دامساً، ثَمّةَ ضوءٌ فيه، على هديه لابدّ سأجدُ طريقي.

الرواية رحلة في المجهول، لذلك تحفل بالكشوف، وبأحداث تستدعي بعضها بعضاً، ومصادفات لا أصنعها بقدر ما تُفرض عليّ. بهذا المعنى تصبح الرواية اكتشافَ صاحبها، سواء الأفكار، أو الأحداث، أو الأشخاص.. اكتشافَ العلم في سيرورته، ماضيه وحاضره بالدرجة الأولى. وفي هذا ميزة، إذا كانت تجذبني فهي ستجذب القارئ، وإذا كانت تهمُّني فهي ستهمُّ القارئ. لذلك لا خسارة في الانكباب على كتابتها سنةً أو سنتين، وربما ثلاثة أو أربعة، لا يهمُّني قارئٌ معيّن. أنا أمامَ قارئٍ مجهول، لذلك وبالضرورة أنا القارئ، ولكي ترضيني لابد من بذل ما أعتقد أنّه أقلُّ ما يمكن، بذله في عملية الكتابة المشرعة على الحياة والبشر.. إنّه الإخلاص.

الرواية الأولى مثل الحبّ الأول

ليانة بدر*

الرواية الأولى مثل الحب الأول. تبدأ حافلة بالأسئلة، وبالفرح، وبعدم تصديق التحقق هذا إنْ كان مَنْ يكتبها مخلصاً لها وللكتابة وليس لآمال موهومة بالعثور على توصيف اجتماعي ورومانسية تسبق الاسم. فقد بدا لي دائماً بأنّ ما يميّز الروائيّ الحقيقيّ قدرته على متابعة تعدّديّة الشخصيات، ومن ثمّ كتابة وابتكار أكثر من شكل ورواية، لأنّ بإمكان أيّ إنسان - حسب ما قال البعض - أن يكتب رواية واحدة على الأقلّ هي قصّة حياته.

أحياناً، تبدأ الرواية هكذا - كنّا في فلسطين. خلال حرب حزيران 1967 اصطحبنا والدي الطبيب في رحلة ليوم واحدٍ إلى عمّان لكي يتركَنا في ضيافة عائلة من الأصدقاء ويعودَ إلى عمله

---

* روائية وقاصة وشاعرة فلسطينية من مواليد القدس، كتبت في القصة والرواية والعشر، كتبت وأخرجت أفلاماً وثائقية وسينمائية، حصلت على شهادة الليسانس في علم النفس العام في جامعة بيروت العربية. من أعمالها في الرواية: «بوصلة من أجل عباد الشمس» 1979، «عين المرآة»1991، «نجوم أريحا» 1993، «الخيمة البيضاء».

في اليوم ذاته. كان مداوماً في المستشفى ليلاً نهاراً، وكان قلقاً علينا ونحن فتياته؛ يتيمات الأم، نقضي اللّيل على درج البناية وسط الظلام الدامس بسبب تحويم الطيران فوق المدينة. استغرقت رحلة الساعة الواحدة في السيارة والتي ابتدأت العاشرة صباحاً إلى عمّان الجزء الأكبر من النهار، وقعنا خلالها في فخّ قصف الطيران الإسرائيليّ الذي قضى يومها على زميلتي في الصف وعائلتها جميعاً محترقين بالنابالم داخل سيارتهم.

كنّا وسط الجموع المرتاعة الراكضة من مخيمات أريحا تحت القصف. وخلال نصف ساعة من وصولنا إلى عمّان قاموا بقصف جسر اللنبي وتهديمه، فانضممنا بغمضة عين إلى النازحين الجدد. وبلمحة واحدة فقدنا كلّ ما لدينا في الحياة غير اللجوء ذاته!

لم يرضَ والدي بعدها بأنْ يغامرَ بقطع المخاضة الخطرة ليعودَ مع أطفالٍ قد تجرفُهم المياه أو يُصابون بطلقات الاحتلال. هكذا انضممنا إلى جموع اللاجئين الأبديّة دون توقّع، ودون قصد، وبفرق ساعات بسيطة لو لم يُقصفْ الجسرُ فيها لعاد والدي إلى بيته وعيادته وتدبَرَ أمرَ إعادتنا بطريقة ما بعدها. أما وقد صرنا جميعَنا في الخارج فقد مُنعنا مثل غيرنا من العودة..

هذه هي كلّ الحكاية.

في بيروت اكتشفت أنّني واحدة بين عشرات الآلاف من المنفيّين وأنّني فجأة فقدت كلّ ما لديّ حتّى الهوية.

خلال المدرسة كنت أكتب قصصاً قصيرة أتلمّس فيها طريقي، وقد علقَّ عليها وشجعني على كتابتها كلٌّ من محمود شقير وخليل

السواحري. في بيروت، تبعثرت قصصي بفعل بدء الحرب الأهلية، وصار عليّ اكتشاف العالم من حولي لكي أفهم أين أنا وماذا حدث بي وبمن حولي. فجأة انتزعت من عالمي، ومن بيتي، وسريري، وثيابي، وكتبي التي جمعتها منذ الطفولة، ومن صحبة عشرات العائلات التي نشأت معها من أصحاب وأقارب، ووجدت نفسي في عالمٍ آخرَ لا أعرف فيه أحد ولا يعرفني فيه أحد. ضاع من كانوا يعرفون اسمي ورسمي وفصلي ومن أنا وما هي أنواع الطعام في بيتنا وأسماء أخواتي. فجأة افتقدت مفتاح الخزانة الصغيرة التي أخبّئ فيها مذكّرات كلّ يوم. كان لزاماً عليّ أن أجد نفسي الضائعة في منفى يلدُ حرباً أهليةً مستعرة. منفى يتفنّنُ بإعادة تدوير نفسه عبرَ اختراع حربٍ جديدةٍ لا ناقة لنا فيها ولا جمل.

أذكر أنّني كنت أتساءل خلالها وبكثير من الدهشة عن معنى كلمة «طائفية»، واستدعى الأمر تدخّلاً وشرحاً من عدّة أشخاص وعلى عدة مرات كي أفهمَ، أنا الفتاة المقدسيّة القادمة من مركز العالم القديم حيث تتعايش الطوائف دون أنْ أعرفَ أنّ الاستعمار الكولونياليّ الصهيونيّ كان يثبّتُ امتداداته الجديدة على خارطتها.

إذاً بدأت الحرب، وصارت حياتي التي كنت أحاول أنْ أجدَ لها معنى مجرّد تشظّيات تتطاير في الفضاء حولي، غير مدركة ما يمكنني عمله كي أتذكّرَ أين أنا، وكيف أضعت نفسي داخل أتون تلك الحرب التي حتّمت علينا مواجهة الأهوال والقصف والعذاب اليومي بتفاصيله الصعبة.

بدأت أكتب رواية «بوصلة من أجل عباد الشمس» كي أتذكّر نفسي وأذكّرها من أنا ومن أين حضرت، وما الذي يحدث حولي.

كان الافتقاد إلى الوطن يمضني، وصور الطبيعة البهيجة في أريحا وفلسطين وأنا محتبسة وراء الجدران بسبب القصف تعاودني حنيناً وتوقاً. وكنت أشتاق إلى أناس كثيرين مهمين في حياتي عرفت أنّني محرومة بشكل مطلق من استئناف حياتي معهم.

في ذلك الوقت كنت المحرّر الثقافي في مجلة «الحرّيّة»، وكان هذا يتيح لي أنْ أطّلعَ على الحدث السياسي في لحظته، ولفتت نظري عملية خطف الطائرات ورأيت في أحد الأيام صورة شابٍ وسيمٍ يقف فوق حقل من العشب الأخضر وخلفه طائرة في البعيد. كان مهندسَ طيرانَ فلسطينيّاً تحوّل الى خاطف طائرة في عملية شهيرة هي «مقديشو». وتساءلت حينها: ما الذي يجذب شاباًّ مثله لأنْ يتركَ حياته المليئة بالفرص ويذهب إلى عملية انتحارية ؟!.

وكان ذلك مفتاح رواية «بوصلة من أجل عباد الشمس»، التي اختطت نهجاً جديداً في الرواية الفلسطينية. فالنساء الثلاث فيها هنّ الشخصيات الأولى اللواتي يحاورن الفعل مع الناس ويحاولن العثور على مطرح في الحياة عبرَ مشروع نضاليّ أو عمليّ يشغل كلّ واحدة فيهنّ. والخاطف يعطي الجوّ إيقاعه لكنّ فعله الفرديّ لا يغيّر التاريخ بقدر ما يخلق دماراً وتعدّياً على حقوق الأبرياء. كما أنّ المكان هو الفضاء المفتوح للمرأة التي اعتادت الروايات أن تحبسها وراء جدران المنزل أو الحبيب، وتلك كانت ملاحظة التقطتها الناقدة زهور كرام.

جنان تشتغل في العمل التطوّعيّ في مخيمَيْ صبرا وشاتيلا، وتراقب تشكل المقاومة الفلسطينية في أول صعودها بعثراتها وإنجازاتها، وشهدُ تعمل مع المقاومة الفلسطينية في بلد عربي، وثريّا تعمل في دائرة الآثار في نابلس وتجد نفسها وسط الجموع

الخارجة في انتفاضات شعبية لم تتوقفْ منذ ذلك الحين. شخصيات الرجال كانت هي المحتبسة وراء مسار إيديولوجيّ أو حركيّ.

كتبت الرواية ثلاث مرّات في سنتين. وعندما قرأها سهيل إدريس، وكنّا جيراناً نلتقي عند البقّال في منطقة الجامعة العربية، قال إنّها تحتوي على «قماشة روائية» ولكن هذا لا يكفي، فعاودت كتابتها لمرة ثالثة.

في المرة النهائية سمعت عن دار ابن رشد فقدّمتها لهم، فقال مدير الدار إنّهم سيقرؤونها للحكم عليها. كان حيدر حيدر هو مستشار الدار. طلبوا مني الاتّصال بعد أسبوع فنسيت المسألة كلّياً، واعتقدت أنّهم سيعتذرون مثل من سبقهم فلمْ أهتَمْ بالسؤال إلّا بعد عشرين يوماً. عاتبني حيدر حيدر حينها وأنا على الهاتف قائلاً: رواية بهذه الروعة وتثير الدهشة ولا تهتمّين بالسؤال! وقال إنّه لمْ يصدّقُ أنْ تكتبَ امرأة عربية رواية فيها الجرأة والقوّة والقدرة على التعامل مع العالم بهذه الطريقة.

وبسبب تربية والدي الإسبرطية، والحزم الذي تعلمته من أمي المثقفة، رفضت أيّةَ تقديمات على غلاف الرواية من كتاب وكاتبات أصدقاء كانوا مشهورين جداً بمعايير تلك الأيام. كانوا يتطوّعون للكتابة وأنا أرفض لأنّي لم أقبل أنْ تكونَ هنالك أيّةُ كلمةٍ شفاعةً بيني وبين القارئ.

طبعت الرواية ونالت تقريظاً واسعاً، وأعاد الرفاق في الأرض المحتلّة تصويرها وإصدارها، وظلت على قوائم الكتب أكثرَ مبيعاً في الأردن وفلسطين لأكثرَ من عامين. تمّت طباعتها ثلاث مرات في طبعات عربية، وصدرت بترحيب كبير من قبل نقاد ووسائل إعلام هناك باللغة الإنجليزية، ثمّ صدرت بالفرنسية.

والمأساة أنّ دولة عربية ما زالت تضعها على قوائم المنع رغم صدورها منذ زمن طويل ممّا يؤثر على دخولها إلى الكثير من معارض الكتب حتى الآن.

كتب والدي مقالاً حينها يحاورني حولها وينتقد عنوان الرواية. «بوصلة من أجل عباد الشمس» والذي رآه أطول من اللازم. ومشبّهاً إياه بعنوان «الساق على الساق لأحمد فارس الشدياق» لكنّي وحتّى الآن ما زلت أرى أنّه ينطبق على حالتنا.

هل يعرف الثوريّون أيَّ جهةٍ يتبعونها حين يبحثون عن الشمس؟!

وهل كان لزاماً علينا أنْ نمرَّ بكلّ هذه الحروب حتّى نكتشفَ هويّتَنا بين حين وآخر، وننزلقَ إلى تفاصيل تدمّر الواقع قبل أنْ تبحثَ عن إعادة البناء والترميم؟ وأين هو دور النساء في كلّ هذا؟!

وما زال السؤال ماثلاً.

عن جروح الكتابة والواقع

ماجد سليمان *

لا زلتُ أذكرُ الليلة الفاصلة بين عام 1999م وعام 2000م التي أنهيتُ فيها قراءة رواية (شقة الحرّيّة) للأديب السعوديّ الكبير: غازي القصيبي، أعدت الرواية لحقيبة صغيرة، وقلت في نفسي: «كم أغبط هؤلاء على شقّ طريق الخيال الواسع الغنيّ بالتفاصيل والمفاجآت والأسرار»، لم يطرأْ عليّ بتاتاً وأنا الخارج من دولة الشّعر بأنّ القَدَر سيُهدي لي الفرصة التي تجعلني أنضمُّ إلى رَكب روائيّين طالما سهرت الليالي أقرأ في بديع بيانهم.

لعلّ من أكثر الأعمال التي كانت تغريني للكتابة القصصية بشكل عامّ هي أجواء السِّير الشعبية التي عرفناها في الصغر، كسيرة عنترة، وحمزة البهلوان، وسيف بن ذي يزن، وأخريات، هذا خلاف التي

* أديب سعودي، نشر حتّى الآن 14 عملاً أدبياً، ثلاث روايات، هي: «عين حمئة»، «دم يترقرق بين العمائم واللحى»، «طيور العتمة»، ومسرحيّة «وليمة لذئاب شرهة»، وأربع مجموعات توزّعت بين القصة والشعر والمقالة، وثلاثة أعمال للطفل، وثلاثة أعمال في المنتخبات الأدبية.

كانت تُعرض على الشاشة أو التي كانت تُقرأ على أسماعنا في المدارس حين كنّا في الصفوف الأوليّة، يقابلها تلك التي كنّا نسمعها في مجالس الأهل ونحن صغار. السّير بشكل عام تعزّز الشغف القصصيّ والتقصّي النفسيّ للشخوص، وتبثّ الفضول لمعرفة أدقّ ما كان يدور في حياة أبطالها، وإلى اليوم ما برحت السّير تغني الوجدان العربي وتثريه، وهي خير برهان على أنّ القصصَ شغفٌ قديمٌ عند العرب.

بعدها تجدّدت قراءتي للسّرد فكنت إلى جانب السّرد النثري أسافر في نصوص السّرد الشعريّ المتمثّل في الملاحم «كجلجامش» وملحمة «التّبع اليماني» وغيرها، ما جعلني أزداد فخراً وزهواً بتراثنا الأدبي العربي الأصيل، وفي عام 2008 وبعد خمسة أعمال إبداعيّة، واحد في الشعر، وآخر في القصة، وثلاثة في المنتخبات الأدبية، كتبت روايتي الأولى (عين حمئة)، وذلك بعد أن تفجّرت أحداثها في مخيلتي ممسكة بخيوط من الواقع وأخرى من الخيال، موقناً أنّني تمهّلت أكثر ممّا يكفي، كنت وقتها أختزن غضباً كبيراً ضد بعض الممارسات غير المريحة لإنسان العصر، رغم أنها تتشابه مع مثيلاتها في أماكن كثيرة، وقد لا تكون بغريبة في مجتمعات عدة.

بدأت كتابة روايتي الأولى بعد أن أغلقت مسودة مجموعتي القصصية الوحيدة (نجم نابض في التراب) وبقيت في تردّد من نشرها لسبب قد لا يكون مقنعاً لدى البعض، والتي ظلّت حبيسة أدراجي حتى بعد صدور روايتي الأولى، فأنا حتى اللحظة لا أرى للقصة القصيرة إغراء ونشوة وسعة كالشعر والرواية أو السّيرة.

وفي منتصف عام 2009م اعتكفت على إكمال ما كان ناقصاً في فصولها وأحداثها، ثم أعدتها وأنا أُصارع شيئاً من التردّد، وفي

نهاية عام 2009م فردت صفحات المسودّة على طاولتي لأعيدَ قراءة ما كتبته، وبعد تصحيح وتمحيص وتعديل وشطب وإضافة، وجدت أنها تحتاج فقط لوقت من الانتظار، كنت موقناً أنّ التجربة الأولى مُحيّرة أكثر من التجارب التي ستليها، لأنّ خروج الكاتب من التجربة الأولى سيمحي غشاوة التجربة العامّة ككل، وقتها ساورني شكّ أنّها (بيضة الديك) لشعوري وقتها أنّني كتبتها عن غضب اجتماعي، ونقد حالة إدارية سلبية تسود واقعي المدني، وليست وليدة تراكم سردي أو أدبيّ شموليّ.

وخلال عام 2010م أخذت قراري بإصدارها وانتظار ما سيكون بعدها، إمّا أنْ أكملَ مشواري أو أكتفي بها وأنضمّ لأصحاب «الواحدة اليتيمة» في الرواية العربية، وتبقى تجربتي الروائية الوحيدة محلّ شكّ وتساؤل عن جدواها.

لا شكّ أنّ كلَّ عملٍ أول نادراً ما يسلم من عيوب البدايات، وهذا في نظري طبيعي، لكن حين يُعزّز الكاتب حضوره بأعمالٍ أخرى، مبيّنة تطوّره السرديّ، ونموّ أفكاره الإبداعية، يكون وقتها قد خرج من دائرة البدايات شريطة أنْ يكونَ قد قَرَن الكم بالجودة، ولو متفاوتاً، وهذا ما يحقّق الكثير من المتعة الذاتية لصاحب التجربة.

وفي نهاية عام 2010م أنهيت كافة إجراءاتي مع الناشر، وصدرت مطلع عام 2011م تحت عنوان (عين حمئة) الذي انتخبته من بين عدّة عناوين كانت ضمن الخيارات التي وضعتها بعد انتهائي من العمل، فقوبلت عقب الصدور بتسع مقالات توزعت بين أدباء من وطني أمثال الروائي السعودي: محمد المزيني، والروائية: فاطمة البلوي، وأدباء عرب أمثال الأديب السوري: أديب حسن محمد، والأديب الجزائري: عبدالقادر كعبان، تحقّق لي بعدها الحضور الممتع على

الخارطة الأدبية، كما أسعدني أنَّ العملَ راقَ لمبدعين كبار من وطني أمثال من ذكرت وأمثال الأديب السعودي: عبدالحفيظ الشمري، الذي كتب عنها في جريدة الجزيرة السعودية قراءة من ضمنها: «عَكَسَ الواقع المتردي لمنظومة أعمال المدن وقرارات الوظيفة وارتجالات العلاج، والحلول المؤقتة وغياب الهدى وضياع الأمل وما إلى ذلك من صور هي في الأساس كما يقول الكاتب ضريبة ندفعها نحن للمدن التي لم يكتمل نموها بعد»..

تأكّد لي بعد مقالات عدّة لمبدعين عرب، أنّه لنْ يفهمَ المُبدعَ إلّا قرينُه المبدعُ، تماماً كما يفهم الشعراء بعضهم، فليس هناك ما هو أروع من مرافقة المسكونين بالفن، ومصاحبة الغائرين في جروح الكتابة، ونغم الصورة، ولهفة الخيال.

تلا ذلك عدد من الحوارات التلفزيونيّة والإذاعيّة والصحفيّة التي أجدها ضروريّة للتعريف بأيّ صاحب عملٍ أول في أي جنس أدبي كان، لأنّ ما سيلي ذلك من أعمالٍ ستكون ترسيخاً وتأكيداً على أنّ الكاتب حقيقي وليس بطارئ، وممّا أبهجني أيضاً هو أنها اختيرت ضمن القائمة الطويلة لجائزة حائل للرواية 2012م. برغم أنّني لا أعتبرُ الجوائز معياراً لجودة العمل بل دافعاً مهمّاً لمعنويات المبدعين.

بعد ذلك تلاشت غشاوة التجربة كما ظننت سلفاً، لتقفزَ إلى ذهني أفكارٌ أكثرُ أهميةً وأكبرُ إغراءً من قضايا المجتمع المدني التي تناولها جلُّ المبدعين بالشعر والنثر، ورسمت بعدها خطوط سير أعمالي وتواصلي مع أقراني من أدباء العربية في وطننا الكبير.

والآن وأنا أستعد لإصدار روايتي الرابعة، والمنتمية لأدب الحرب، ما زلت أذكر الوضع النفسي أثناء كتابة الرواية الأولى، وأبتسم

لظروفها التي دفعتني لخوضها، وأشكر الغضب الذي أشعل في قلبي جذوة الكتابة، ومهّد لي طريق السرد الروائي المغري، وأغدق على روحي فكرة الخوض في قضايا كبيرة كأدب السجون المتمثل في روايتي الثالثة «طيور العتمة» والأدب السياسي المتمثل في روايتي الثانية «دم يترقرق بين العمائم واللحى».

عشرون عاماً من فضل الله هو عمر تجربتي الأدبية عامّة، جعلت التنوّع انطلاقتي، لأنّ جمال الحياة يبنيه التنوّع والتعدّد، الذي ينمّي شخصية المبدع ويجعلها شموليّة تُدرك سعة الكون لتتأمّل حجم التغيرات، عشرون عاماً أمضيتها في التعلّم الذّاتي وتلمّس كلّ جديد في الأدب، مُعطياً روحي السفر في الحقول الأدبية متى احتاجت ذلك، فلا أُقبل على كتابة قضية أو موضوع إلّا بعد أن يُشعرني بضرورة تناوله، كما أُؤكّد بأنّ الأدبَ ليس محصوراً في الرواية فقط بل هو منظومة تشمل: الشعر، والمسرحية، والقصة، والسيرة.

فحم وذرة وكحول.. صـراع الروايـات

محمد الأصفر *

حتى الآن كتبت ثلاث حارات من الروايات، لا أدري أيّهما الرواية الأولى، كلّها تتقدّم صفوف ذاكرتي، وتقول أنا الأولى، حاولت أن أجري قرعة بينها، لكنها في البداية توافق على القرعة، وتقسم بكل آلهة السرد أن تلتزم بنتيجتها، لكن ما إن تظهر النتيجة، حتى يتمّ الرفض، وعدم القبول، وتبدأ المعارك الشرسة فيما بينها.

---

* روائيّ ليبيّ مقيم في ألمانيا أصدر عدداً من الكتب في الرواية والقصة والمقالة، له في الرواية: «المداسة» دار نشر الحضارة العربية القاهرة 2003+ دار الحوار سوريا 2006 م، «تقودني نجمة» نشر شخصي + دار الحوار سوريا 2006، «نواح الريق» (نشر شخصي) 2004 (ولم تسمح الرقابة السورية لدار الحوار بنشرها)، «سرة الكون» - مؤسسة الانتشار العربي نبيل مروة بيروت 2005 + دار الحور سوريا 2007، «شرمولة» - دار ليبيا للنشر بالقاهرة - 2005 - + دار الحوار سوريا 2008 م، «يا نا علي» - دار ليبيا للنشر بالقاهرة 2006م + دار الحوار سوريا 2008 م، «عسل الناس» - دار الحوار سوريا 2008م، «شكشوكة» - دار الحوار سوريا 2009، «ملح» - دار الحوار سوريا 2010 م، «فرحة»- دار الحوار سوريا 2010م، «وزارة الأحلام» - دار الحسام القاهرة 2011م، «الربابة الحنونة» - دار المتوسط - ميلانو 2016.

أوراق تتطاير، تحترق، حبر ينزف، كدمات على الأغلفة، كلمات تنطح بعضها، تدفع بعضها نحو البحر، نحو الهاوية، ومن هنا أصرخ فيها جميعاً: «فلتتوقف المعركة، أنتنّ لا تعرفن معنى الديمقراطية، والقرعة، والانتخابات، والشورى، رغم أنّ كلّ كلمات أوراقكنّ تتغنّى بهذه القيم والشعارات النبيلة العادلة».

لم أدرِ أنّ الروايات التي نكتبها مخلوقات مثلنا، تعيش أزمات نفسية ومشاكل لا حدّ لها، تعيش الحسد والحقد والكراهية والأنانية، وكلّ رواية لا تتمنّى الخير لأختها التي من لحمها ودمها، تحاول أنْ تتقدمَ عليها، أنْ تضيءَ أكثر منها، أنْ تحبطَ كاتبها بمُكر، تقول له لا جدوى من الكتابة، لا تكتبْ رواية أخرى، ما كتبته وخاصة أنا قلت فيه كلّ شيء، وهو الأفضل، لا تُتعبُ نفسك، وكل هذه الأوامر تأتي كي لا يكتبُ الكاتب رواية جديدة، تتجاوز ما كتبه سابقاً، أو تقتل ما كتبه سابقاً، رغم أن غرضه من التجاوز، هو إضافة مزيد من الضوء لكلّ مدوّناته السابقة.

لا أدري ما معنى كلمة الأولى، هل هي رقم، أم أنها البداية، أم أنها الشرارة البِكر، وعموماً لا أعرف بالضبط روايتي الأولى، لو أنّي اعتمدت على ما يوجد من كلمات على كلّ الورق الذي دوّنته وطبع في كتب، فكلّ كتاب لديّ أعتبره هو الأول، وكل ما به من سطور أجدها وكأنها كتبت في مرّة واحدة، وحكت عن شيءٍ واحد، التاريخ لا يلتصق بها، والزمن تتملّص منه كلّما حاول اصطيادها وحشرها في حيّزٍ ما.

ذات ليلة عدت إلى البيت متأخّراً جدّاً، كانت كلّ مصابيح البيت محترقة، فيما عدا مصباح المطبخ، دخلت إلى المطبخ، وفي يدي

حزمة أوراق وقلم، بحثت عن طعام أتناوله فلم أجدْ، وجدت فقط بعض عرانيس الذُرة، أشعلت موقد الفحم، وصرت أشويها، وأكتب حكايتها، حكاية حقل الذُرة، حكاية الغابة التي تحوّلت إلى فحم، حكاية السوق الذي باع الفحم وباع الذرة، حكاية اللقاء بين النار الساخنة والذُرة الباردة الجافة، حكاية الرائحة المنبعثة من اللقاء والصوت الصادر من سيرة النضج والمضغ، حكاية الفجر الذي ولد فجأة، وجعل مصباح الكهرباء في المطبخ لا أهمية له، حكاية وراء حكاية، حتى نفد حبر القلم، ونفدت حزمة الورق، وخمدت نار الكانون، ولم يبقَ أمامي أيُّ شيءٍ، سوى تنظيف المطبخ، ورمي مخلفات جريمتي، في برميل القمامة.

لا أدري ما الذي كتبتُه تلك الليلة، قصة، رواية، قصيدة، لم أبيّضْه كالعادة، وأرسلته إلى جريدة أدبيّة، فنشرته على صفحتها الأخيرة، ولم أعلمْ أنّ ما كتبته سيُنشُر، لقد كنت لا مبالياً. حدث أنّي كنت في منطقة الظهرة بطرابلس، الحي الذي ولدت فيه، كما أخبرتني أمي، فدخلت صدفة مكتبة، لشراء جرائد أو كتاب يعجبني، فوجدت شاعراً كردياً يعيش في طرابلس تلك المدّة عام 1999 م وفي يده جريدة، سألني: «هل أنت فلان الفلاني؟». قلت له: «نعم». قال: «نصّك جميل جدّاً، قرأته ثلاث مرّات». ابتسمت وقلت له: «مرحباً، عن أي نصّ تتحدّث؟». ففرد أمامي الجريدة، لأجدَ ما كتبته تلك الليلة عن الذُرة والفحم، قد التهم الصفحة الأخيرة كلّها من جريدة الجماهيرية، وحيث أنّي لم أعنونْ النصّ، فقد جعلت له أسرة تحرير الجريدة عنوان: «من مذكرات شجرة «. اشتريت من الجريدة عدة نسخ، ودعوت الشاعر الكردي إلى مقهى قريب، وأخذت أقرأ النص ببهجة وفرح لا يوصفان.

حكيت مع الشاعر الكردي عن الأدب والكتابة، وفي المساء دعوته للعشاء في إحدى مطاعم طرابلس الأنيقة، احتفالاً بنشر هذا النص في الجريدة، طلبت لحماً مشوياً، لكنه رفض اللحم، قال لي: أسناني مزروعة تقريباً لا تقوى على نتش اللحم المشوي. فطلب لحماً مفروماً، وبعد أن نشر النص تم استدعائي من قبل المسؤولين في الصحافة، لأنّني كاتب جديد - بحسب ما قيل لي حينها - وخرجت فجأة بدون مقدمات أو مرور على رعاة المواهب.

ماذا تقرأ؟ كيف تكتب بهذه الجودة؟ بمن تلتقي؟ ماذا درست؟ أين كنت قبل أن تكتبَ؟ أنت لديك موهبة، أسئلة كثيرة، أجبت عنها بخجل، وحرص أيضاً، لأنّني أعرف أنّ معظم مَن يعمل في الصحافة والثقافة آنذاك هو مخبر بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

عموماً لم أتوقفْ، وصرت أكتب بكثافة وأنشر في الجرائد العربية والليبية، وذات يوم استدعاني رئيس تحرير جريدة «الشمس»، وقدم لي بعض الأوراق وقال لي: «اكتبْ لي قصة الآن أمامي». كتبت له قصة من ثلاث صفحات، قال لي: «شكراً». غادرت الجريدة إلى بحر سيدي الشعاب بمسقط رأسي الظهرة، حيث الكورنيش، وحيث الذُرة المشوية على الفحم، والنوارس. كانت معي زجاجة خمر صغيرة، أرشف منها بمقدار، اشتريت عرانيس ذُرةٍ مشوية، صرت أنتش شكلها الأسطواني وأفرغه من الحبيبات المشوية الساخنة، وأرمي بالثمرة المجرّدة من حبيباتها إلى البحر، أراها تطفح قليلاً، ثم تغرق في زَبد الأمواج البيض.

في فمي رائحة ذُرة، رائحة فحم، رائحة شجر، رائحة كحول، رائحة نشوة، رائحة حياة، رائحة موت، البحر كان صديقي منذ

الـولادة، عندمـا مرضـت رضيعـاً كانـت أمـي تحملنـي إليـه، تمـرّ علـى سـيدي الشـعاب، ثـم تهبـط إلـى البحـر، تغطسـني فيـه، فتهبـط حرارتـي، وتختفـي البثـور مـن جلـدي، حتـى عندمـا خُتنـت، أخذتنـي أمـي إلـى البحـر، وغطسـتني فيـه، حتـى التـأمَ الجـرح سـريعاً، وتوقفـت عـن لعـن ذاك الفقيـه الـذي قـام بهـذه العمليـة المؤلمـة.

حقيقـة لا أعلـم مـا هـي روايتـي الأولـى، لـنْ أحتكـمَ للمطابـع، أو لأرقـام الإيـداع بـدار الكتـب الوطنيـة، أو لتاريـخ الصـدور، ومـن هنـا لا يمكننـي أنْ أحـدّدَ كتابـي الأول، الـذي ربمـا لـمْ أكتبْـه بعـد، حتـى الآن مـا زلـتُ أكتـبُ بشـكلٍ عشـوائي، أكتـب كمـا أحـبّ، وليـس كمـا يحـب القـارئ أو الناقـد أو التاريـخ، سـأظل أشـوي الـذُرة فـي المطبـخ أو الهـواء الطلـق، وإنْ لـمْ أجـدْ فحمـاً، فسـوف أذهـب إلـى الغابـة، أو لأيّ بـركان قريـب، ومـا أكثرهـا الآن، خاصـة براكيـن القلـوب الثائـرة أبـداً.

انتزاعُ الأملِ من براثن الإحباط

محمد ولد محمد سالم *

ليست لروايتي الأولى حكاية مخصوصة، فقد كتبتها في سياق سعيي إلى تطوير قدراتي الكتابية، لكنّ الأهم منها هو حكاية ما قبل كتابتي لها، فقد كنت طالباً في القسم الأول من الثانوية عندما قررت بوعي أن أصير كاتب قصة، في وقت لمْ تكنْ فيه القصة رائجة في موريتانيا، ولمْ تعرفْ بعد بشكلٍ واسع، وكان الشعر هو أكثر الفنون الأدبية التي تستهوي الطلاب في نهاية المرحلة الإعدادية عندما يمرون على دروس العروض، ويكتشفون أنظمة الشعر الإيقاعية، وكان انتشار الثقافة الشعرية التقليدية في المجتمع بشكلٍ واسعٍ يعزّز هذا التوجّه ويشجعه، وكثيراً ما يبدأ شعراء موريتانيا الحديثةً مسيرتهم مع الشعر من هذه المرحلة، وقتها فكّرت في أنّ الاتّجاه إلى الشعر لن يعطيني أية خصوصيّة أو ميزة، نظراً لأنّ كلَّ الذين يمتلكون ميولاً أدبية يتّجهون لممارسة الشعر، فمن الصعب التميّز في ما هو رائج، لذلك قرّرت أنْ أصرفَ نفسي لكتابة القصة.

* صحافي وروائيّ موريتانيّ مقيم في الإمارات. صدر له في الرواية: «أشياء من عالم قديم» 2007 و«ذاكرة الرمل» 2008 و«دروب عبد البركة» 2010. «دخّان» 2016م.

لـمْ يكـنْ البحـث عـن خصوصيـة وحـده هـو الباعـث لـي علـى هـذا القـرار، فقـد كان هـوى القصـة راسـخاً فـي وجدانـي مـن خـلال قراءاتـي علـى مـدى السـنوات السـابقة ومنـذ المرحلـة الابتدائيـة مـن خـلال قصـص الأطفـال، مثـل سلسـلة «المغامـرون الثلاثـة»، و«كليلـة ودمنـة»، وقصـص أغاتـا كريسـتي، وقـد اكتشـفت فـي جـوار مدرسـتي الإعداديـة مكتبـة المعهـد العالـي للدراسـات والبحـوث الإسـلامية، وكانـت تحتـوي علـى كتـب أدبيـة قيمـة، ومجموعـات مـن القصـص القصيـرة مـن ضمنهـا مجموعـة «حـبّ تحـت المطـر» لنجيـب محفـوظ، ومجموعـات مـن مسـرحيات توفيـق الحكيـم، ومـن خـلال هـذه المكتبـة توطـدت علاقتـي بالقصـة، وبالمطالعـة بشـكل عـام، وهـي العلاقـة التـي ستتوسّـع بعـد ذلك لتشـمل كلّ المكتبـات العامـة والمراكـز الثقافيـة فـي نواكشـوط، كالمركـز الثقافـي السـوري، والمكتبـة الوطنيـة، والمركـز الثقافـي العراقـي، والمركز الثقافـي الليبـي، والمركـز الثقافـي المغربـي، ثـم المركـز الثقافـي المصـري بعـد إعـادة فتحـه، ومكتبـة جامعـة نواكشـوط، فقـد كانـت تلـك المكتبـات سـنداً لـي فـي تكويـن ثقافـي بشـكل حـرّ يتجـاوز قاعـات الـدرس.

منـذ لحظـة القـرار تلـك، بـدأت أكتـب القصـة القصيـرة، وأذكـر أنّ أوّلَ قصـةٍ كانـت بعنـوان «الـدرس المفهـوم» وكتبتهـا فـي بدايـة السـنة الدراسـية، وكانـت حـولَ تلميذٍ تتملّكـه الدهشـة والإعجاب مـن أوّل درسٍ أدبـيّ يقدّمـه لهـم أسـتاذ اللغـة العربيـة، ثـمّ واظبـتُ علـى الكتابـة، ومكثتُ مرحلـة الثانويـة متـردّداً بيـن المسـرح والقصـة، فقـد كان المسـرح رائجـاً فـي تلـك الأيـام، وكانـت خشـبة دار الثقافـة فـي نواكشـوط مسـرحاً لكثيرٍ مـن المسـرحيات والاسـتكتشـات التـي يقدّمهـا شـبّان مفعمـون بالحمـاس للفـنّ، ولتغييـر أوضـاع المجتمـع والسياسـة، وكنـت علـى صلـة ببعـض أولئـك الشـباب، لكننـي لاحظـت أنّ المسـرحَ لا يُقـرأ، ونصوصـه لا قيمـة لهـا مـا لـم تمثّـل علـى الخشـبة، فاخترت الانصـراف إلـى القصّـة

القصيرة التي لا تنتظر من يمثّلها، ومكثت سنوات الجامعة أتدرّب على كتابة القصة القصيرة، وأعمل على تطوير قدراتي الذاتية.

عندما تخرّجت بدأت التطلّع إلى كتابة رواية، واعتبرتُ أنّ كتابة القصة كانت تمهيداً للرواية، ومرحلة تدريب ضروريّة لها، وبرغم أنّ دراستي الجامعية هي دراسة أدبية، وأنّني كنتُ أتمتّعُ بأساسٍ نظريّ جيّد عن الرواية، وقد قرأت كثيراً من الروايات إلّا أنّ عملية كتابة الرواية كانت لا تزال شيئاً غامضاً بالنسبة لي، ولمْ أكنْ أعرفُ بالضبط ما الذي ينبغي عليّ القيام به لكيْ أكتبَ روايةً، ولكنّني تسلّحتُ بالحلم وبدأت أضعُ الخطط لكتابة رواية، وكنتُ حينها قد انتقلت للتدريس في إحدى المدن الداخلية، وبعد عدد من المحاولات نجحت أخيراً في كتابة رواية «قرية الطيحة»، حاولت فيها رصد واقع المجتمع متناولاً أشكالاً من الممارسات والاستغلال كانت سائدة، ثم واصلت محاولاتي في كتابة الرواية، فكنت تارة أكتب فصولاً من رواية ثم لا أعجبُ بها، فأهجرها قبل أنْ أكملَها، وتارة أخرى أكمل رواية، وكانت فترة التدريس بالنسبة لي فترة فتور انخفض فيها حماسي، بسبب انسداد الأجواء الأدبية آنذاك، فقد اصطدمتُ بواقع غياب النشر في موريتانيا، وعدم وجود أيّة إمكانية للنشر في الخارج، ما يجعل كتابة الرواية نوعاً من العبث الذي لا طائل من ورائه، ورغم هذا الجو فإنّني لم أتخلَّ عن الكتابة، فكنت دائما أمتلك مخططاً لمشروع رواية، أعمل على كتابته، ولو بتراخٍ شديد قد يدوم شهوراً بل سنوات.. كانت إحدى عشرة سنة من الإحباط، لكنني ظللت متشبّثاً بالأمل.

وواظبت حتى كتبت سنة 1997 رواية قصيرة بعنوان «أشياء من عالم قديم» اعتبرتها البداية الفعلية لمسيرتي الروائية الحقيقية، التي

تضعنـي علـى طريـق الاحتـراف، وأحسـب أنّ عناصـر السـرد مكتملـة فيهـا، وأنّهـا قدمـت رؤيـة متكاملـة واتّسـمت بطابـع إدهـاش وتشـويق، هـذا رغـم أنّهـا قصيـرة، لـم تتجـاوز عنـد طباعتهـا لاحقـا ثمانيـن صفحـة.

حكايـة «أشـياء مـن عالـم قديـم» بسـيطة، وهـي فـي الأصـل حكايـة رواهـا لـي صديـق عـن رجـل يعرفـه، قضـى ربـع قـرن يبيـع الفحـم فـي سـوق شـعبيّ مبنـيّ مـن أكـواخ الخشـب، واسـتطاع بعملـه المتواضـع تربيـة أولاده، وتدريسـهم حتّـى حصلـوا علـى شـهادات عليـا، وعندمـا توظّفـوا وظائـف مرموقـة أصبـح عمـل والدهـم معـرّة بالنسـبة لهـم، فـراودوه لكـيْ يتـركَ ذلـك العمـل، وافتتحـوا لـه محـلّ بقالـة علـى أحدث نمـط، لكنّـه لـمْ يسـتطعْ التكيّف مـع طريقـة البيـع فـي المحـلّ وظـروف الشـارع الـذي يقـع فيـه فتركـه.

عندمـا سـمعت هـذه الحكايـة لأوّل وهلـة قـدرت أنهـا تصلـح للبنـاء عليهـا كروايـة، ووجـدت فيهـا عمقـاً يكشـف عـن أبعـاد اجتماعيـة وإنسـانية عميقـة، وعنصـر إدهـاش جـاذب، فبـدأت بوضـع تصـوّر لبنيتهـا، وتخيّلـت تفاصيلهـا، بطريقـة تجعـل أزمـة ذلـك الرجـل مظهـراً لأزمـة مجتمـع قديـم، بـدأت قيمـه تتداعـى تحـت غـزو الحداثـة، لكنّنـي ظللـت حريصـاً علـى أن أعطـي الأولويـة لقصـة الرجـل كشـخصية حقيقيـة تعيـش واقعهـا بـكل تشـابكاته، فـلا يظهـر المجتمـع وتجلياتـه إلّا مـن خـلال حيـاة الرجـل، ومـا زلـتُ أعتقـد أنّـه فـي كتابـة الروايـة ينبغـي أنْ تعطـى الأولويّـة للشـخصيّة حتـى تأخـذَ أبعادهـا الإنسـانية بـكلّ توافقاتهـا وتمايزاتهـا وانسـجامها وتناقضهـا.

كانـت الانطباعـات التـي عبّـر عنهـا بعـض الأصدقـاء والزمـلاء الذيـن قـرؤوا مخطوطـة الروايـة مشـجعة، فقـد كانـت فـي المجمـل تميـل إلـى الإعجـاب بهـا، مـا شـجعني علـى مواصلـة المحاولـة وأعطانـي دفعـاً جديـداً فـي وقـت كنـت فـي أمـسّ الحاجـة إليـه، فاسـتمررت فـي

المحاولات، وفي عام 2002 كتبت رواية جديدة قصيرة هي الأخرى، لكنها سوف تبقى إحدى أهم النصوص التي كتبتها، وهي «دروب عبد البركة»، وقد استوحيتها هي الأخرى من قصة سمعتها عن شاب تركه والده في بطن أمه، ولمْ يرَه، حتى شبَّ الولد واشتدّ عودُه، فبدأ رحلة البحث عن والده، من أقصى الشرق الموريتانيّ حتّى أقصى الغرب حيث عثرَ عليه في قرية غافية على دلتا النهر.

طيلة تلك الفترة لم أنشرْ شيئاً، غير قصّتين قصيرتين أو ثلاث نُشرت في بعض الصحف الموريتانية، ولم أكنْ في البداية مشغولاً بالنشر، لأنّني أعطيت الأولوية للتدريب وتطوير قدراتي، وكنت أعتبر ما أكتبه مجرد محاولات، كما أنّ النشر كما ذكرت آنفاً كان شبه معدوم، وما هو موجود منه رديء ومكلِف، ولم أكنْ - وأنا مدرّس تعليم ثانوي أتقاضى راتباً زهيداً جداً، لا يكفي لسدّ أبسط ضروريات حياتي - أستطيع أن أفكّر في النشر، فحتّى شراء كتاب كنت عاجزاً عنه، فكيف بنشر كتاب، لكنّ الأمل سوف يتجدّد عندما حظيت بفرصة للإقامة في الإمارات، والعمل فيها، ما أتاح لي فرصة مواصلة الكتابة بوتيرة أحسن وأسرع، فكتبت عدة روايات، ونشرت حتى الآن أربعاً منها..

حين أتأمّل الآن تلك المسيرة أجد أنّني استطعت في النهاية أن أتغلّب على كلّ تلك الإحباطات، وأن أنتزع أملاً عزيز المنال من براثن كلّ المثبطات التي اكتنفت بداياتي الأدبية، والتي كانت ستجعلها - لولا الإصرار الذي تحلّيت به - حلماً عابراً لا أمل في عودته.

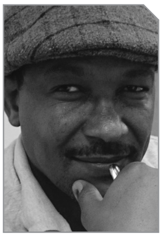

خطوتي الأولى في درب الرواية الوعر

منصور الصويم *

-1-

لحظة غضب، تلك التي سبقت كتابتي لرواية «تخوم الرماد» أولى رواياتي المنشورة. غضب أنتجه الواقع العام المحتقن من حولي. هذا التصاعد الانفعالي الغاضب دفعني وقتها إلى الانكفاء على الشيء الوحيد الذي كنت وما زلت أرى أنّني أجيده، ومن خلاله أستطيع التعبير عن نفسي وطرح آرائي عن العالم والأشياء التي من حولي؛ أعني الكتابة.

الآن أحاول استعادة هذه اللحظة الشعورية النادرة: اصطدامي بصورةٍ فانتازيّة لمشاهد سوق المحاصيل الكبير في مدينة نيالا «دارفور»؛ الشاحنات الضخمة محملة بالبضائع، الازدحام الكبير في دروب السوق الضيّقة، حركة الحمالين النشطة في تحميل جوالات

* روائي سوداني. نشر حتّى الآن له خمس روايات، هي: «تخوم الرماد»، «ذاكرة شرير»، «أشباح فرنساوي»، «آخر السلاطين»، «عربة الأموات».

المحاصيل، حرارة الجوّ الخانقة، الأصوات الضاجّة، الوجوه التي أخذت بغتة تظهر متداخلة مع كلّ هذا أمام وجهي؛ معارف رحلوا فجأة خلال الشهور الأخيرة، سائقو شاحنات وتجار محاصيل صغار، وشرطيون قُتلوا خلال مناوشات أخيرة في تخوم المدينة القريبة، تداخل غريب ما بين الحركة الهائجة للسوق ومشاهد الموت والدماء التي بدأت أخبارها تنتشر في سماء المدينة..

كنت غاضباً، أسرع من خطاي لقطع مشوار طويل نسبياً حتى المنزل، في منتصف الطريق لمحت بقالة، تحسّست جيبي، وجدت ربما نصف جنيه، أخذته واشتريت كرّاسة مدرسية من الحجم الصغير وقلم ماركة «بِك»، قبضت عليهما بعنف، وواصلت مسيري وصور مشوشة لمفتتح الرواية وشخوصها تتخلل ذهني وتسحبني رويداً من كلّ شيء حولي.

حين وصلت البيت كان أوّل ما فعلته أنْ فتحتُ أوّل صفحة من الكراس وكتبت عليها: تخوم الرماد «رواية». وبدأت الكتابة.

- 2 -

قال أحد النقاد بعد صدور رواية «تخوم الرماد» إنّ كاتبها الشابّ - كتبتها في سن 26 عاماً - تأثر بالروائي الطيب صالح، ويلاحظ ذلك في استخدامه لتقنية التبادل الصوتي بين راويي العمل الرئيسين. كانت ملاحظة جيدة، لكنها لم تكنْ صحيحة؛ على الأقلّ في جانب تأثري بالطيب صالح في لعبة التقنية والأصوات، فمع قدم وانتشار هذه التقنية أصلاً وعدم اختصاصها بكاتب بعينه، إلا أنّني كنت مأخوذاً بالفعل لحظة كتابة «تخوم الرماد» برواية «الوشم» للكاتب العراقي عبد المجيد الربيعي، التي أعدها من أكثر الروايات العربية اكتمالاً وامتلاءً من حيث موضوعها وتقنيتها.

كتبت «تخوم الرماد» بلغة شعرية مكثفة تفعلها الجمل القصيرة الرشيقة وتدعمها الحوارات المبثوثة في تقاطعات متناثرة أشبه بلغة الأحلام، وربما نتج ذلك عن تأثري بأسلبة القصة القصيرة التي كنت مستغرقاً في كتابتها ذلك الوقت.

من المفارقات التي صاحبت هذه الرواية أنّ لغتها واجهت شكلين متعارضين جداً من النقد؛ الأوّل توقف عند الأخطاء اللغوية التي صاحبت طبعتها الأولى وحاولت نسف الرواية على أساسها، والثاني ركّز على لغتها الشعرية المكثفة وحاول ربط ذلك بـ: توصيف النبوئية الذي لازم الرواية منذ صدورها وحتى هذه اللحظة.

بعد صدور الرواية بسنوات ترجمت إلى اللغة الإنجليزية، ونالت جائرة الطيب صالح للإبداع الروائي، عن ترجمة المترجم والناقد السوداني، ناصر السيد النور، الذي كتب منذ وقت مبكر لافتاً إلى الميزة اللغوية والبنائية للرواية.

- 3 -

تناولت رواية «تخوم الرماد» التحولات العنيفة التي كانت تضرب إقليم دارفور وتبشر باندلاع حرب وشيكة، عن طريق سرد قصة شخصيتين أساسيتين تنتميان للمؤسسة العسكرية والحزب الحاكم في السودان، وتقاطع علاقتهما مع القيادات القبلية المحلية، وتفسير حالة الفساد التي مهدت لصعود كليهما سلطوياً واجتماعياً ومادياً.

صدرت الرواية قبل اندلاع الحرب في دارفور بثلاثة أعوام فعدّها الكثير من النقّاد والقراء نبوءة بهذه الحرب. وكثيراً ما وُوجهت بسؤال النبوءة هذا، وكنت أجيب دائماً بأنّه ليس من مهامّ الأدب - الرواية التنبّؤ، وإن ما حدث لا يعدو كونه استقراء لواقع أحسّه

وأستشعره لأنّني كنت في قلب أحداثه، فوجودي مع والدي في سوق نيالا للمحاصيل أتاح رصد ما يحدث من مصادر مباشرة تختلف تماماً عن المبثوث رسمياً، كما عرفني بشكل دقيق على مخاوف أهل الإقليم وتوقعاتهم لما ستؤول إليه حال دارفور قريباً في ظلّ التردّي الأمنيّ والسياسيّ الحادثين.

حاولت في «تخوم الرماد»، الاقتراب من أسئلة الناس العاديين، أوجاعهم وآلامهم وشظفهم اليومي، حاولت تقديم ذلك التغيير الاجتماعي المخلخل الذي بدأ يسري في أوصال مدينة نيالا - أمر سأتناوله بشكل أعمق في رواية أشباح فرنساوي - حاولت فضح أساليب وأكاذيب السلطة الحاكمة بمواجهتها بذات أسئلتها المدعاة ووضعها أمام جرمها التاريخي بتشويه العلاقات الاجتماعية وتخريبها في هذا المكان الذي كانت تعده قصياً ومنسياً.

الآن، أرى أن «تخوم الرماد» لم تكنْ نبوءةً بحرب دارفور المستمرة حتى الآن بقدر ما كانت احتجاجاً على مصير الإنسان في هذا الإقليم وفي كلّ مكان.

- 4 -

يمكنني القول إنّ الفضل في استمراري في كتابة الرواية واختيارها وجهة معبرة عني يعود في الأساس إلى هذه الرواية، فلولا صدورها وما أثارته من ردود أفعال نقدية ومقروئية، لما اكتشفت إمكانيات الروائي الكامنة في داخلي، وعمدت بالتالي على الاشتغال على ما يمكنني أن أصفه بـ «مشروعي السردي»، الذي صدرت عنه حتى الآن خمس روايات هي «تخوم الرماد» و«ذاكرة شرير» و«أشباح فرنساوي» و«آخر السلاطين» و«عربة الأموات»، كما أعتقد جازماً

أنّ الفضل الأكبر في كتابتي لأولى روايتي واستمراري من بعد في كتابة الرواية يعود إلى والدي - أستاذ اللغة العربية والأديب والمزارع وتاجر المحاصيل - فما كنت أعدّه ممانعة منه لتمويلي للاشتغال في «سوق الله أكبر»، كان رؤية متقدمة منه إذ كان يراني أبحر في مجال آخر عليّ أن أشحذ له أدواتي جيداً بعيداً عن مستنقع السوق وسماسرته.

جرحُ الرواية..
توقّع لأصابعك أن تحترق

موسى رحوم عباس *

عندما تكون الكتابة نوعاً من النزف، فإنّ جزءاً منك يتساقط على البياض في أوراقك، وتصبح شاهداً على بقعة دمك وهي تتمدّد على اتّساع وطن غدا حدوده الشهداء والفاجعة. انتقلت من الشعر إلى الرواية، بعد أن صدر لي ديواني الأوّل» الآفلون« عن داربيسان للنشر والتوزيع، بيروت، 2010م، ثمة أصوات متعدّدة تصرخ داخلي، لم يستطعْ الشعر أن يصادرها، أو يسكتها، فكانت روايتي الأولى» بيلان« الصادرة عن دار بيسان أيضا، بيروت، 2011م.

الرواية حياة ممتدّة، نهر تتجمّع فيه ينابيع متعدّدة، كنت متردّداً، بل خائفاً من أن يطغى علي ولع الشاعر باللغة؛ ليحول دون وصول روايتي لرؤيتي لفنّ الرواية، إذ أراه بحثاً اجتماعياً وسياسياً، وإزميلاً

---

* شاعر وروائيّ سوريّ حاصل على دكتوراه الفلسفة في علم النفس العيادي (السريري)، وحاصل على الإجازة في اللغة العربية وآدابها، جامعة حلب. صدر له في الرواية: «بيلان»، دار بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، 2011م وقد أدرجت على القائمة القصيرة لجائزة الشيخ زايد للكتاب، دورة العام 2012م.

يحفر أبعد من السطح؛ ليصلَ للنواة الصلبة في حياتنا، إضافة للعبة اللغة والفنّ، وأكثر ما كان يرعبني سقوط الكثير ممّن هرعوا للرواية على أنّها بضاعة رائجة في أيامنا هذه، لتتحوّلَ أعمالُهم إلى ركامٍ إنشائيّ، وألاعيبَ لغويةٍ بائسةٍ غالباً، ولا بأس من البهارات من مثل الإيحاءات الجنسية المجانية، أو شتم الأديان لمجرد استجلاب الإعجاب من هيئة جائزة، أو كتبَة النقد المدفوع الأجر كبطاقات الهاتف الجوال مسبق الدفع!

وأسارع للقول إنّني لا أمانع أنْ يتناولَ الروائيّ أيَّ موضوع من دون اعتبار لأيّ «تابوه»، لكن شرط أنْ يأتيَ ذلك ضمن خطّة العَمل وسياقاته الفنية وبتواشج تام مع خيوط الرواية، وليس لغايات تسويقية وشعبوية. ولم تسلمْ من هذا أسماء كبيرة في هذا الفن. «لا رغبة لي في معارك هامشية مع أبطالها ومريديها».

العمل الروائيّ الأوّل يشكّل ضغطاً على الروائيّ، فالحمولة الكبيرة التي ينوء تحتها تفرض نفسها عليه، خبراته، المكان الذي ينتمي إليه، ثقافته، الاتّجاه السياسيّ، الإيدولوجيا التي يعتقدها، وأنا لست بدعاً في هذا، فأنا من منطقة الفرات السورية، تلك المنطقة التي ابتلعها النهر بعد إنشاء سدّ الطبقة، موت تلك الأرض وغرقها في أعماق البحيرة شكّل صدمة لوعيي، لم أستطعْ التصالح معها حتى الآن، أنْ تغرقَ ذاكرتك، وكلّ تلك الدروب التي مشيتها حافياً، أمر لم أتمكّنْ من فهمه، أنْ يُنقلَ أهلي إلى أرض ليست لهم، أن يُعاملوا كبيادق في رقعة شطرنج طائفية، لغايات شوفينية، فنُقل أبناء منطقة الغمر للجزيرة (الحسكة والقامشلي) في لعبة بعثية قذرة، لا أستطيع نسيان صوت والدي - يرحمه الله - وهو يقول: «لن أسكن في بيت وأرض منهوبين مغصوبين»، ونتيجة ذلك أنّنا انتقلنا إلى الرقة المدينة فعشنا على هامشها في أحياء الفقراء

مـن دون كهربـاء مـدّة مـن الزمـن، متنازليـن عـن بيـت الحكومـة وقطعـة أرضهـا فـي «الحـزام العربـي» هكـذا كان يعـرف! ومـع الفقـر والقهـر يصـرُّ الحـاج رحـوم (والـدي) أنَّـه سـعيد ومرتـاح الضميـر!

شـهدت وأنـا فـي المرحلـة المتوسّـطة انقـلاب الأسـد الأب، وخرجت مع طـلاب الإعداديـة وبإشـراف مدرّسـينا للتظاهـر ضـدّ الانقـلاب الفاشسـتي، ثـم أُخرجنـا بعـد ذلـك بيوميـن «لمسيرة» تأييـد لمـا صـار يعـرف بـ«الحركـة التصحيحيـة»، ومـن يومهـا بـتّ أكـره مـادة «سـار» وأحذفهـا مـن المعجـم مسـتعملاً البدائـل المتاحـة، ولـله فـي خلقـه شـؤون!

كلّ تلـك الذاكـرة التـي تضـجُّ بالأحـداث سـالت فـي مجـرى روايتـي التـي وسـمتها بـ (بيـلان)؛ بيـلان ذلـك الشـارع الفسـيح فـي قريتـي «كسـرة مريبـط» التـي كانـت تنـام علـى صـدر النهـر، وبيـلان ذلـك الممـرّ الإجبـاريّ فـي جبالنـا الغربيـة الـذي انطلقـت منـه قـوى الاحتـلال وجيـوش المدافعيـن أيضـاً.

الوجـود الروسـيّ فـي موقـع السـدّ والتفاعـل بيـن العـرب والـروس فكريـاً وثقافيـاً، هـو الآخـر لـم يمكـنْ لـي تجـاوزه، الماركسـيّة والمراجعات والصعـود والهبـوط محليـاً وعالميـاً شـكّل خلفيـة للصـورة، إنّـه الموسـيقى التصويريّـة للعمـل، ذلـك الفشـل الذريـع للدولـة «الوطنيـة» بعـد الاسـتقلال التـي لـم تسـتطعْ بنـاء مواطنـة حقيقيـة، بـل باتـتْ تغـذّ الخطـا نحـو الديكتاتوريّـة والنظـام الشـموليّ، الطائفيـة التـي لا تخفـي نفسـها، تغلغـل الفسـاد، تحـوّل البعـث إلـى مصنـع الخـراب الفكـريّ، والعطـب الثقافـي فـي حياتنـا، السـقوط المتسـارع نحـو بنـاء الدولـة الأمنيـة، كلّ هـذه الخلطـة السَّـامة شـكّلت مـادة لنسـج روايتـي الأولـى «بيـلان».

ولعـي بالمـادة البصريـة وذاكرتـي الملونـة، طغـى علـى نسـيج الروايـة التـي أحسـبُ أنّهـا جـاءت أقـربَ للسـيناريو السـينمائي المكثـف مـن

العمـل الروائـي التقليـدي، أسـعدتني هـذه اللعبـة، لأنّهـا أبعـدت عنـي خطـر السـقوط فـي الإنشـاء وألاعيـب اللغـة التـي لا تسـهم فـي بنـاء العمـق الـذي أرومـه لشـخصيات روايتـي؛ فهـم كلّ أولئك الطيبيـن الذيـن أردت أنْ أبـرزَ صوتهـم، ولـم أحـاولْ تجميلهـم مطلقـاً، هـم ضحايـا سياسـات الحـزب الواحـد والقائـد الفـذ والعقـم العقائـديّ. أنـت تـرى مجتمعـاً يتـم تحطيمـه، وبلـداً تتهشّـم أركانـه، وتحـاول الكتابـة؛ لتصنـع معـادلاً فنيـاً للكارثـة، لـذا تتوقّـع لأصابعـك أن تحتـرق!

دراسـتي للغـة العربيـة وعلـم النفـس السـريريّ شـكّلا سـلاحاً ذا حدّيـن بالنسـبة لـي، لـم أشـأْ أنْ أكـونَ إلّا روائيـاً، كمـا كان يقـول ميـلان كونديـرا في كتابـه» الوصايـا المغـدورة»، عندمـا تسـألني: هـل أنـت يسـاري أم يمينـي، أجيـب أنـا روائـيّ، هـل أنـت... الإجابـة دائمـاً: «أنـا روائـي». أي أردتُ أنْ أكـونَ روائيـاً وحسـب، ولكنّنـي اسـتثمرت اختصاصـي فـي روايتـي، وأحيانـا مـن دون وعـي وتخطيـط مسـبقين، لـم أسـتطعْ تجنّـب ذلـك.

لا أنكـر أنّنـي أعـدتُ كتابـة النـصّ مـرّات عـدة، اسـتنزفتْ منـي الكثيـر مـن الوقـت والجهـد والدمـوع أحيانـاً، فأنـا أحـبُّ شـخوصي وأتعاطـف معهـم، ولا أقسـو عليهـم، وأبتعـد عـن الحكـم عليهـم، فلسـت قاضيـاً على كلّ حـال، لا أشـبه أحـداً منهـم، وأشـبههم جميعـا بأوزارهـم وحسـناتهم، ففيهـم اللصـوص والشـعراء والهامشـيّون وأهـل السُّـلطة، لا أتبـرّأُ مـن أيّ منهـم، فأنـا المسـؤول تمامـاً عنهـم.

قبـل أن أدفـع بروايتـي «بيـلان» للمطبعـة؛ لتصـدر عـن دار «بيسـان» ثـم لتصـلَ فـي السَّـنة التاليـة للقائمـة القصيـرة لجائـزة الشـيخ زايـد للكتـاب 2012م، قـرّرت إهداءهـا لأهلـي، وكان الإهـداء حفـرةَ حـزنٍ أخـرى وقـع قلبـي فيهـا، هـي أشـبه بنـار اكتويـت بهـا، فكيـف أهـدي روايتـي لأهـلٍ أمّييـن، لا يحسـنون القـراءة والكتابـة؟!

ربما يشتمون حريق ذاكرتي من خلال أوراقها! وفي ذلك بعض العزاء.

في مغارة الخيال..

ميّادة خليل *

حكاية الرواية الأولى تبدأ من الطفولة وربّما تنتهي إليها أيضاً.

في أول مرّة قرأت «الأمية» لأغوتا كريستوف ذُهلت. «هذه أنا» قلت، وعندما قرأت أكثر عن كريستوف اتّضح لي أنّ كثيرين قالوا عن هذا الكتاب «هذا أنا». قلت «هذه أنا» عندما تحدّثت كريستوف عن كذبتها على أخيها تيلا الذي يصغرها بثلاث سنوات. كذبتُ على أخي الذي يصغرني بعامين الكذبة نفسها. لكنّ ردّة فعل أخي كانت مختلفة. ببساطة لم يصدّقْني وركض نحو والدتي، وأنا عندما سمعت أمي تصيح «ميّادة» ركضت أنا الأخرى لوالدي وحضنته، وهكذا خلصت نفسي كالعادة. رويت قصصاً أو «أكاذيب» مشابهة

* كاتبة ومترجمة عراقيّة مقيمة في هولندا، من مواليد البصرة 1971، لها في الرواية «نسكافيه مع الشريف الرضي» المتوسط 2015م، ترجمت عدة كتب منها: «أصوات.. حوارات مترجمة مع الكتاب»، «الروائي الساذج والحساس» لأورهان باموك، منشورات الجمل 2015، «العميل السري» لجوزيف كونراد، منشورات المتوسط 2017. «امرأة في برلين» المتوسط 2017.

لصديقاتي وأقاربي ممّن كانوا في مثل عمري. ما كان يشجّعني على الاستمرار في تأليف هذه الأكاذيب هو جملة: «ها وماذا بعد؟» عندها أفتح لهم مغارة الخيال والكذب.

يقلب أبي الجريدة ثم يرفعها أمام وجهي ويقول بحضور أقربائنا: «يلّلاه ميّادة أقريلهم». قرأت ولم أتوقّفْ. من قصص الأطفال التي كانت تجلبها لي أختي من العشار إلى مجلة «مجلتي» إلى شكسبير إلى هاري موليش وفيليب روث وإلى ما لم أقرأْ بعد.

في المرحلة الابتدائية كنت أكتب شعراً موزوناً أقلد فيه شعر سليمان العيسى وتقرأه لي ست نادرة، معلمتي طوال ست سنوات المرحلة الابتدائية، وتقدّم لي ملاحظاتها مع ابتسامة، لكني كرهتُ كتابة الشعر فجأة، لأنّ ما يدور في رأسي قصصٌ وليس فكرة. الشعر محدود وفضاءه مقيّد. القصص حرّة وأرضها واسعة جداً. في نهاية المرحلة الابتدائية بدأت في قراءة مجلة علوم، أقرؤها من الغلاف إلى الغلاف «حرفياً»، أختار الموضوع الأكثر إثارةً وأهمية، أقصّ صوره وألصقها في دفتر كبير بنّيّ وأعيد كتابة الموضوع فيه.

كنت أريد أن يكون هذا لي «باسمي». أن أكتب عن الفضاء والصحون الطائرة والمخلوقات المتطوّرة التي تعيش في عالم آخر أفضل من عالمنا. بعدها مجلة العربي الكويتية، برنامج العلم للجميع، كتاب سيرة حياة مدام كوري، مسرحية شكسبير عطيل، المجلات التي كان يجلبها لنا أبي من مكتبته، كلّ العرب والدستور والوطن العربي والتضامن وألف باء وغيرها، قصص وكتابات عبد الستار ناصر في هذه المجلات وسلسلة الموسوعة الصغيرة. كنتُ أقرأُ كلَّ شيءٍ بشغفِ «معرفة كل شيء». كلّ هذه القراءات بالإضافة إلى التلفزيون أثرتْ خيالي.

كتبت قصصاً عن المخلوقات الغريبة التي قرأت عنها في مجلّة علوم. وألّفتُ مشاهد تشبه مشاهد مسرحية عطيل. حكايات عمّتي.

عمّتي كانت حكّاءة عظيمة، أستطيع سماع قصصها لساعات من دون أنْ أشردَ ثانية واحدة. كانت تروي القصص بسخرية وفكاهة فريدة.

تأثّرتُ كثيراً بسيرة حياة مدام كوري وتمنيتُ أنْ أُصبحَ مثلها في يوم ما. عالمة تكرّس كلّ حياتها للعلم. لكن سرعان ما تبدد هذا الحلم. اتّضح لي أنّ رغبتي في أن أكون مثلها سببها «الكتاب» الذي تحدّث عنها وليس حياتها كعالمة. أريد أن أكتبَ مثل هذا الكتاب. أكتبَ كما لو أنّي أعيش حياتها هي.

أحرقتُ القصص الخيالية التي كتبتُها كلها. هكذا بلا سبب. وبعد ذلك بمدة قرأت في نهاية أحد المجلات التي ذكرتها سابقاً صفحة للكاتبة الكويتية ليلى العثمان كانت تتحدّث فيها عن أشياء فعلتها وندمت عليها، بأسلوبها الدافئ البسيط، من الأمور التي ذكرتها أنّها ندمت على إحراقها دفتر يومياتها. عندما قرأت هذا ندمت أنا أيضاً. لماذا فعلت ذلك؟

حتى الآن لا أجد جواباً عن هذا السؤال. لكني عرفت ما أريد: أريد أنْ أُصبحَ كاتبة مثل ليلى العثمان وأكتبَ: أنّي ندمتُ على حرق قصصي عندما كنت صغيرة. أريدُ أنْ أُصبحَ كاتبة. أكتبُ القصصَ التي تدور في رأسي ليلَ نهار. أكتبُ عمّا أراه أنا ولا يراه غيري.

تخليت عن هذا الحلم في الإعدادية ونسيته تماماً. حتى قرأت روايات خالد حسيني «ألف شمس ساطعة» أولاً وبعدها قرأت «عداء الطائرة الورقية» في ذلك الوقت كنتُ أمّاً لولدين وأدرس في الجامعة بعد أن عادلت شهادتي العراقية. أكملت العام الأول من الرياضيات التطبيقية ونجحت للمرحلة القادمة. توقّفتُ لم أكملْ الدراسة، وبدأت في القراءة عن الروائيّين وحياتهم وكيف أصبحوا روائيين ولماذا.

ترجمت فصولاً من روايات حسيني، وترجمت الكثير عن الكتابة وأساليبها. ثم توقفت أيضاً وتخليت عن هذا الحُلم. كلّ شيء من

حولـي كان يصـرخ فـي وجهـي: «هـذا مسـتحيل». بعدهـا التحقـت بجامعة مسـائية ودرسـت البرمجـة لعـام ونصـف. كنـت أنجـح فـي الدراسـة لكنّـي لـم أرغـبْ فـي الاسـتمرار. «ليس هـذا مـا أريـده» أقـول لنفسـي. وعـدتُ إلـى الكتابـة مـرّة أخـرى. «درسـت» عالـم الروايـة وحيـاة الكتّـاب.

حتـى نشـر مقـالٍ مُترجـم كان أمـراً مسـتحيلاً بالنسـبة لـي. لا أجـرؤ علـى فعـل ذلـك. كنـت أقـول مَـن سـيهتمّ؟ خِفـتُ مـن الفشـل ربّمـا. وفـي فتـرة خمـس سـنوات أو أكثـر، لا أذكـر تحديـداً، كتبـت مسـوّدات ثـلاث روايـات، منهـا روايـة «نسـكافيه مـع الشـريف الرضّـي»، أثنـاء كتابـة المسـودَة كنـت أعـرف أنّـي لـن أنشـرَها، و«مَـن سـيهتمّ؟ عشـرات الروايـات تصـدر كلّ عـام، أيـن أذهـب أنـا وسـط هـؤلاء؟».

كلمـا انتهيـت مـن كتابتهـا أعـدت كتابتهـا مـرّة أخـرى وشـطبت وأضفـت وهكـذا لعاميـن. ووضعتهـا جانبـاً. بالصدفـة كنـت أتحـدّث مـع الناقـد والقـاصّ و«المحـرّر المحتـرف» علـي كاظـم داود عـن النشـر والكتابـة وأخبرتـه عـن روايتـي، عـرض علـيّ قراءتهـا، قرأهـا وشـجّعني علـى نشـرها. وبقلـق وخـوف كبيريـن تجـرّأت بعـد تـردّد طويـل علـى تقديمهـا للناشـر.

أكتـب الآن روايتـي الثانيـة، تجربـة مختلفـة لا تشـبه تجربتـي الأولـى «نسـكافيه مـع الشـريف الرضـي» فـي كلّ شـيء. أظـنّ أنّ تجربـة الكتـاب الأوّل تظـلّ دائمـاً مختلفـة وجديـدة.

خيالـي يعمـل دائمـاً. كأنّـي لـم أعـشْ إلّا فـي خيالـي. الآن أقـول «هـذه أنـا» لأغوتـا كريسـتوف ودوريـس ليسـينغ وماركيـز وبامـوك، «هـذه أنـا» لأنّـي أريـد أنَ أُصبحَ كاتبـة، تكتـب خيالهـا.

مـا بقـي لـي مـن طفولتـي ذكريـات حُلـم حققتـه وأنـا فـي منتصـف الأربعيـن. ومـا بقـي لـي مـن تلـك الطفلـة ميّـادة، خيالهـا كلّـه.

الإبداعُ قرين الحرّيّة

ميس خالد العثمان *

أتذكّر بأنّني نفضت عن كتفيّ عبء التعليم النظاميّ، حين تحصّلت على الشهادة الجامعيّة في الاتصال والإعلام من جامعة الكويت في العام 2000، ومنذها؛ دخلت إلى العالم السرديّ/ السحريّ عبر بوابة القصّة القصيرة، إذ كانت - حينها - الحياة بمساحة محدودة تشبه في اختلاجاتها الومضة القصصيّة، التي تبقى تعيد تفاصيل الحدث الناشئ/ الناتئ توّاً في الروح، وكلّ تحوّل يلامسنا، كان بالضرورة يحتاج لمساحة مناسبة من البياض على الورق ليستقبل نصّاً مكتوباً،.. ونتخفّف.

لعلّ من الضروري الإشارة إلى أنّ في العام 2000، حين طوّقتني هالة السرد القصصيّ، لم تكنْ الساحة الأدبية في الكويت «مُرحّبة كما ظننت أو كما ينبغي» بمن يقترف الكتابة.

---

* كاتبة روائية وصحافية من دولة الكويت، نشرت العديد من الأعمال القصصية والروائية، من أعمالها في الرواية: «عرائس الصوف، «غرفة السماء، «عقيدة رقص»، «لم يستدلْ عليه»، «ثؤلول».

ففي دولة سلكت دروباً طويلة في التجريب والإنتاج الإبداعيّ، كنت أنتظر احتفاءً حقيقيّاً بأيّ صوت جديد يلوّح بأمل منتظر، بل كان الترحيب «مجتمعيّاً» بالأصوات النسائية حينها هو الأقلّ.

مع ذلك، وبرغم العثرات الكثيرة التي حاصرت الانطلاق القصصيّ، كنت قد دخلت لعالم الكتابة بإصدار أوّل/ عتبة بداية مع تباشير العام 2001 (عبث)، وصارعت الخشية من الحرب على العراق في العام 2003، بمجموعة قصصية ثانية (أشياؤها الصغيرة).. حتى حانت اللحظة الفائقة التورّد. كانت قد توسّعت أفكاري قليلاً. كما أنّ نصّاً قد بدأ يطول ويتمدّد رغما عني!

وانشطرت التفاصيل في حيَوات أبطالي وصار مستحيلاً حبسهم في قمقم» القصة القصيرة»! ففتحتُ - دون أنْ أقرّرَ - عالماً مختلفاً وجديداً، وتركت شخصياتي لتنعمَ بفضاء أرحب، بحيث ساعدتني جميعها كي أمكّنها من ممارسة حرياتها للتحرّك في الزمان والمكان والحكي والاختلاف والحبّ والخوف، واحتوتها الأوراق التي جاوزت على حين استرسال أكثر من مِائة صفحة، بحرّية تامة. وهكذا، خطوت نحو «الرواية»، وحين تذوقتها حقيقة متكونة وملموسة، وجدت بأنّ هذا العالم «الصعبط هو الأقرب لي!

كان ذلك مع الإصدار الروائيّ الأوّل لي في العام 2004 (غرفة السماء)، وتوالت الروايات من بعدها. 16 عاماً - حتى اللحظة - أمضيتها ولا أزال في الاقتراب والتعلّم وتلمّس كلّ جديد في السرد والقراءة الكثيرة في حقول مختارة بعناية فائقة، ثمّ الكتابة فيما يشعرني بضرورة تناوله، لامستُ حجم التغيرات التي طرأت على المجتمع، وعلى مؤلفيه، وناشريه، بل وحتى على قرّائه واختياراتهم.

ولمْ أكترثْ للتحولات العجائبية التي تبهرني كلَّ لحظة. بقيت بإصراري كما بدأت، لم أكتبْ إلّا ما يُلامس خاطري، وما يشبهني، وما أودّ أنْ أقولَه.

لم تبهِرْني يوماً الاحتفالات اللامعة باسم الأدب، ولا الاحتفاءات الصارخة على أغلفة المجلات، ولا المراقبة النديّة للأرفف الأكثر مبيعاً، والأهم.. لم يسلبْني الرقيب حرّيتي ولعلني سلبته ارتياحه! لم تربكْني الآراء العائلية/ المجتمعية في ما أنشر من إصدارات، فلازلتُ أتنقّل برشاقة بين الأجناس السردية وفقاً لضرورة الحكاية/ الفكرة الكتابية.

فنحن –السرديّين– نتحدّث كثيراً عن القصص الصغيرة البسيطة العابرة التي قد لا ينتبه لها سوانا! هائمون نحن لا نأبه لنثار الحبر على أيادينا بل للحكاية المربوطة بنا، المخزونة في صدورنا، ننحتها متكاملة دافئة التفاصيل كأنّها لحنٌ غامرٌ يسري جيّداً في أرواحنا، وحين الاكتمال، ندسّه في جيوبكم، كي لا تفقدوا شغفكم في الحياة كلما رانَ على قلوبكم تعب!

ولأنّنا لا نملّ من «دورة الفتك» المتواصلة في الكتابة. اخترت التحوّل قليلاً للتجريب، وملامسة أنواع أخرى، فكانت النصوص السردية في «صلوات الأصابع» 2010 ثم السرد الذاتيّ في «أفتح قوساً وأغلقه»2013، وهي كتجارب تؤكّد على إيماني بأنّ الإبداع قرين الحرية، وبأنه من حقّنا ككتّاب ألا نُحشر – إعلاميّاً ونقديّاً – في قوالب محدّدة وكأنّنا – ننفّذ أجندات إعلامية، تلاها رواية «ثؤلول» في 2015 والتي يبدو بأنها آذت «الرقيب» ومن والاه فمنعها من «وطني» فقط بينما تنتشر خارجه بحيث طُبعت لمرة جديدة خلال أشهر!

إنّي بتجربتي لأشكال أخرى من السرد، أعيش مناخاً صحياً للعطاء والخلق، فالكاتب السرديّ وتحديداً في العالم العربي وليس الخليج فقط، هو في الأصل محارب وحيد، إذ إننا نحارب على أكثر من جبهة، نحارب لنحميَ إبداعنا من التدخل، ومن المنع والمصادرة ومن التأويل!

ونحارب كذلك لنعزز الحرية كفكرة/ مبدأ وتوجّه وسلوك. فالإعلام الذي يحرّك القرّاء نحو ما يقرؤون يجعل الكتّاب - غالبيتهم - يفكّرون في عواقب اختياراتهم كأثر عليهم عبر القلق بشأن البيع والانتشار والشهرة والجوائز، مما يجعلهم ويا لَلأسف ضمن قالب رائج - الآن - وهو «الرواية»، الأمر الذي ربما عُقد لأجله هذا الملتقى، لمزيد من الفهم والتحرّك والفعل والتغيير!

خلاصة القول:

أرى بأنّ الإبداع الجيد حقاً، مقروء بشكل جيّد بل ومطلوب بشكل جيد أيضاً من القارئ الجيد فعلاً، أيّاً كان قالبه الذي يُعرّف به.

دعونا نجرّب، ولنُعِدْ فتقَ السائد وحياكته من جديد، وليلحقْ بنا القارئ الواعي، فهذا العالم تسيّره «الآلات الإعلامية» الضخمة المتكسّبة في الحروب والأمراض والسياسات الدولية، ولا نستثني الفعل الإبداعيّ من كلّ ذلك. لنُعِدْ النظر والتفكير والتجريب، لعلّنا بهذا الفعل المختلف نفتح شبابيك أوسع للكلمة وجرسها الرحيم.

كنتُ أريدُ أنْ أصرُخَ..

ناتالي الخوري غريب *

غالباً ما يكون العمل الأدبيّ الأوّل صورة طبق الأصل عن شخصيّة كاتبه، مع محاولات بعضهم إنكار ذلك، أو تأكيده، أو تركه عرضة للتكهّنات.

بالنسبة إليّ، كانت روايتي الأولى في مكان ما، أقرب إلى هويّة لي، هويّة أردت أن أحمّلها كلّ أفكاري واقتناعاتي، في الحياة والقضايا الكبرى والصغرى، والفلسفة، والمثل، والتعدّدية الاجتماعية والدينية، وكأنّي كنت أريد منها أنْ تعالجَ لي مسألة العدالة الإلهية، السماوية منها والأرضيّة.

لم يكنْ يهمّني أيُّ تقنية أعتمد، وما هو أسلوب التشويق الأكثر سرعةً في الوصول إلى المتلقّي، كنت أصرُخ.. كنت أريدُ أنْ أصرُخَ،

* أستاذة جامعيّة (كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، الجامعة اللبنانية) متخصّصة في الأدب الصوفيّ والفلسفيّ. نشرت عدداً من الإصدارات في النقد والرواية، من أعمالها: «حين تعشق العقول»، «العابرون»، «هجرة الآلهة والمدائن المجنونة».

أنْ أُجاهـرَ بـكلِّ مـا يشـغلني مـن هواجـس تتعلـق بالحالـة الإنسـانية التـي رأت أمـام عينيهـا بعـد تحقيـق العدالـة.

كنـت أريـد أن أشـارك النـاس حالتـي، نظرتـي إلـى الأمـور، تأمّلاتـي. أعتـرف الآن أنـي ثرثـرت كثيـراً فـي روايتـي الأولـى، وأنّـي صرخـت كثيـراً، وأنّـي حيـن كتبتهـا بكيـت كثيـراً كثيـراً، وأنّـي اسـتعرضت كثيـراً مـن معرفتـي وثقافتـي.

كنـت أريـد أنْ أقـولَ كلّ مـا أفكّـر بـه دفعـة واحـدة، وكأنّها العمـل الأوّل والأخيـر. كنـت أريـد أنْ أُظهـرَ للقـارئ والناقـد أنّ التيـارات الفلسـفية لـم تفتْنـي أقوالُهـا، وأنّ الأديـان بمختلـف تجليّاتهـا لـم تغِـبْ عنّـي، ومـا جعلنـي أثـور، هـو رفـض الآخريـن، بحجّـة التعبّـد للطقوسـيات، والتصّـرف العنصـري المقيـت.

أعتـرف أيضـا أنـي قارئـة روايـات نهمـة جـدّاً. أقـرأ لروائييـن كثيريـن، مـن جنسـيات مختلفـة، فـي موضوعـات مختلفـة. وأؤمـن بـأنّ لـكلّ روايـة نكهتهـا وعالمهـا وهدفهـا وطرقهـا، لكنّهـا جميعـاً تصـبّ فـي تعـرّف الإنسـان إلـى الإنسـان.

مـاذا أريـد مـن روايـة أقرؤهـا؟ أريـد أنْ أعـرفَ نفسـي أكثـر، وكأنّـي فـي سـباق مـع الوقـت لأتعـرّفَ إليهـا، وأبقـى فـي رحلـة دهشـة فـي مـا أكتشـف كلّ يـوم، مـع تجربـة جديـدة، التجـارب الجديـدة لا تنحصـر فـي اختباراتنـا الحياتيـة اليوميـة، نحـن نعيـش مـع أبطـال الروايـات التـي نقرؤهـا، نتقمّـص حالتهـم، نفتّـش عـن أنفسـنا فـي تفتيشـهم عـن أنفسـهم، نُفاجـأ بـردّات أفعالهـم، نضـع أنفسـنا دائمـاً فـي أمكنتهـم لنـرى الاختلاف بيـن تصرّفاتنـا وتصرّفاتهـم.

مـاذا كنـت أريـد مـن روايـة أكتبهـا؟ سـؤال بقـي يـدور فـي بالـي أكثـر مـن عشـر سـنوات، هـي المـدةّ التـي حملـتْ أفـكارَ روايتـي الأولـى فـي

رأسي إلى أنْ خرجتْ إلى قيد الوجود. هل أكتبها لي؟ لقارئ معيّن؟ لإثبات أمر ما؟ لترك بصمة أو أثر؟

كان لا بدّ للرواية من أن ترى الضوء وتباركها الحياة حتى أحصلَ على إجابات ترضي إصراري. وددتُ أن أواجهَ قبح العالم بالمثل والقيم والانتصار على التفكير العنصري، كنت أبحث عن العدالة الموعودة، في الحبّ والإيمان والألوهة، كنت أبحث عن عالم يرضي توقي إلى المثال لأعيش فيه بسلام، كنت أعتقد أني بكتابة رواية أسهم في تغيير العالم نحو الأفضل. كنتً أعتقد أنّي بكتابة رواية أجد ما لا يمكن إيجاده على أرض الواقع.

نعم، كتابة الرواية كانت فسحتي لأقولَ صراحةً ما يعتمل في نفسي من أفكار ومشاعر وصراعات، كانت فسحتي لأقول ما لا أجرؤ على المجاهرة به، كانت فسحتي لأعرّفَ الناس إلى ديانات الشرق الأقصى كما أرى إليهم، يداً لقبول التعدديات على أنّها حتمية مصيرية. كانت فسحتي لأقول إنّ الحبّ الصادق مخلّد بعشق العقول، العقول التي تتخاطر فتتنزّه في حدائق بعضها، راجية اتحاد لا تفصله معيقات الحياة وظروفها.

في كتابة الرواية الأولى، يختلف الأمر عن قراءة الرواية، أنت تتقمّص أبطالك، وتتحمّل مسؤوليّة أفعالهم، شخصيات الرواية لا تبقى حبراً على ورق، بل تصبح شخصيّات من لحم ودم، تتألّم لألمهم، لأنّك في الأصل تنقل ألمك أنتَ، في الرواية الأولى أنتَ تُعرّي نفسك، تُعرّيها تماماً، تُعرّي أحلامك، وماضيك، وغدك، وعقدك، ومآزمك، في الرواية الأولى أنتَ تشارك الناس جميعًا دواخلك، هواجسك، طموحاتك، خططك، لغد يعيش فيه الجميع بسلام.

في كتابة الرواية الأولى، أنتَ تبحث لجميع من أخطأ إليك عن مبّررات، أنت تكتب بعضاً من مسيرتك، ربّما من دون وعي منك، وربّما بوعي منك أنْ تحمّلَهم همومك ومسؤولياتك، لتعرف ماذا يمكن أن يحلّ بهم. في حين أنّ الرواية الثانية والثالثة، يختلف الأمر كثيراً من نواحٍ عديدة.

وأعترف أنّي في روايتي الأولى، كنت أقرب إلى الناقدة التي تحلّل نصّاً، إلى الباحثة التي تريد من الرواية أن تكونَ رواية معرفيّة، لأنّي كنت ومازلتُ، من الذين يؤمنون بأنّ للرواية دوراً تعليمياً وتثقيفيّاً هامّاً.

شخصيّات الرواية قريبة مني بقدر ما هي بعيدة جداً. هي شخصيات من الواقع، عانت وتعاني، لكنّها مع ذلك همّشت، وكأنّ معاناة بعض البشر حتمية لا تستحقّ التوقف عندها، مواساةً أو احتراماً. تتكلّم روايتي الأولى «حين تعشق العقول» عن بطلة خلاسية، تشعر بتأزم في هويتها، لأنّها لم تقبلْ من أهل أبيها اللبناني، ومن أهل أمّها الإفريقية. تهجس بالعدالة الإلهية، فتذهب لتبحثَ عنها بعيداً عن لبنان وليبيريا، في الهند، بحثاً عن حضارات أخرى أكثر قبولا للتعدديات، فتجد ألا خلاص إلا بالحبّ، الحبّ الذي يتجاوز الحدود والأسيجة التي قام البشر بتشييدها، الحبّ الذي يجعل الأرواح تتعانق والعقول تعشق مهما بعدت المسافات وكثرت المعوّقات.

تدور أحداث روايتي الأولى بين ليبيريا في غرب أفريقيا، ولبنان، والهند. لا أنكر أنها بلاد زرتها، وعشت فيها، وما زلت أتردّد إليها، لذلك، جاءت كتابتي عنها كتابة واقعية، حول ظروفها وأحوالها وأديانها وعادات أهلها وطقوسهم. لكن، يبقى للخيال ذلك الدور

الـذي يتـرك لنـا مجـال تجميـل الواقـع، وتزيينـه، ذلـك الـدور فـي إفسـاح المجـال للكثيـر مـن الأمـل فـي الانتصـار علـى الألـم، ذلـك الـدور الـذي يجـب أنْ نتركَـه فـي مشـاركة متلقّـي العمـل، أي القـارئ، كونـه كاتبًـا مشـاركًا فـي العمـل.

الروايـة الأولـى تجعلـك تكتشـف محبّـة الكثيـر مـن المتلقيـن، تجعلك تكتشـف متعـة تحليلهـم شـخصيّات روايتـك ومناقشـتها، تجعلك تكتشـف كيـف يبحثـون عـن أنفسـهم فيهـا، تجعلـك تنتظـر آراءهـم، صغـاراً كانـوا أم كبـاراً، وهـم مـن يجعلونـك تتـوق إلـى مزيـدٍ مـن الكتابـة، إلـى مزيـدٍ مـن المحبّـة، إلـى مزيـدٍ مـن النقـاش، مـن أجـل مزيـدٍ مـن إعطـاء وجهات النظـر المختلفـة.

تبقـى كتابـة الروايـة مشـروع تأمّـلٍ دائـمٍ فـي الحيـاة، مشـروع ثـورةٍ تجـدّد نفسـها بنفسـها، مشـروع خلـقِ عوالـمَ لهـا مـن الافتـراض الكثيـر، ومـن أعمـاق النفـس البشـرية الكثيـر، ومـن الواقـع الكثيـر الكثيـر، أمـلاً فـي تغييـره، مشـروع أداة معرفيّـة تجمـع الجمـال والإمتـاع والإدهـاش والثقافـة. ويبقـى للروايـة الأولـى، ذكـرى طعـم القبلـة الأولـى بيـن حبيبيـن، فـي بـراءة الفطـرة ووعـد البحـث عـن الفـردوس.

الكتابة تحت وطأة الغضب

ناصر الظفيري *

عـام 1987 تخرّجـت فـي كليـة الهندسـة ولـديّ مجموعـة قصصيـة أولـى جاهـزة للطبـع بعـد أنْ أتلفـتَ مجموعـة البواكيـر. رفضـت وزارة الإعـلام نشـر إجـازة المجموعـة فـي وقـت فـرض الرقيـب سـطوته علـى الصحـف والنشـر الأدبـيّ بعـد تعطيـل الحيـاة البرلمانيـة فـي الكويـت وإلغـاء مجلـس الأمـة وإيجـاد مـا يسـمّى بالمجلـس الوطنـي. وتمّـت إجـازة المجموعـة بعـد تدخـل أحـد الزمـلاء لـدى وكيـل الـوزارة عـام 1990. ولكـن الفرحـة لـم تكتمـل. احتـلّ الجيـش العراقـي وحـدث مـا حـدث.

فـي أيـام الغـزو كنـت أجلـس مـع صديـق مـن العائلـة يحدّثنـي عـن قصـة سـمعها مـن أحـد رمـوز كردسـتان فـي يـوم مـا تتحـدّث عـن لقـاء بيـن رئيـس العـراق صـدام حسـين؛ الـذي كان حينهـا نائبـا للرئيـس، وزعمـاء الحزبيـن فـي كردسـتان بعـد قتـال طويـل ومريـر بينهـم. يقـول

---

* روائـيّ ومهنـدس كويتـي مقيـم فـي كنـدا، مـن أعمالـه فـي الروايـة: «عاشـقة الثلـج»، «سـماء مقلوبـة»، «أغـرار»، «الصهـد»، «كاليسـكا».

صدام حسين للأكراد «أنتم شعبي وأنا أحبكم». ويرد الزعيم الكردي «علاقتنا معكم تشبه علاقة الثلج بوردة الثلج. في الثلج ينمو برعم صغير لوردة ويطلب الثلج من الوردة أن يتزوّجها ولكنها تطلب منه أن تنضج وتصبح وردة. ولكن الوردة لا تكتمل إلا حين يستعد الثلج للرحيل وتطلب منه الزواج ويعتذر بأنه قد هرم وعليه أن يرحل. يذوب الثلج ويجرفها معه. يتكرّر هذا المشهد كلّ عام ولكنهما لا يلتقيان أبدا».

حين تمّ تحرير الكويت كنا خسرنا الكثير من الأصدقاء الشهداء والأسرى وبدأت الحكومة الكويتية أيضاً تضغط علينا وتضيق سبل العيش على أغلبنا ممن لا يحمل الجنسية الكويتية. وكان من الصعب أنْ أفكرَ في كتابة عمل وأنا داخل هذه المعمعة. علي التفكير خارجها. وعدت لحكاية الوردة والثلج وقررت أنْ أكتبَ روايةً عن اضطهاد الكرد ومجزرة حلبجة قبل أنْ أكتبَ عن احتلال الكويت ومعاناتنا.

في تلك الأيام انتشرت كتابات متعدّدة لم تفرقْ بين الشعب والسلطة. مجاميع قصصية لكتاب ذوي خبرة وكتاب شباب يصدرون مجاميعهم الأولى، دواوين شعر عربية وشعبية لشعراء كانوا أنصار الحرب العراقية/ الإيرانية ويحاولون جاهدين نظم قصائد مقنعة لمهاجمة العراق، مسرحيات مشوّهة وانفعالية ساخرة من جار الشمال. وكان عليّ أنْ أكتبَ بوعي وسط هذا الضجيج. أنْ لا يضيعَ فن الكتابة تحت وطأة هذا الغضب.

الحل الأمثل هو أنْ أبتعدَ عن الحدث وأنْ أتّجهَ لقصةٍ بعيدةٍ عن الغزو وذكرياته وردود الفعل والانفعال المباشر. أخرجت القصاصة التي كتبت عليها حكاية الزعيم الكردي والرئيس العراقي. كيف

بالإمكان خلق رواية من قصاصة ورق لا تضمُ أكثر من وردة وثلج وزعيمين. عاد إلى ذهني زيارة إلى لندن في أواخر الثمانينيّات وفي أحد الشوارع كان شباب عراقيون أكراد يرفعون صور ضحايا الهجوم الكيماوي على حلبجة المدينة الكردية التي فقدت في يوم واحد أكثر من خمسة آلاف ضحيةٍ مدنية. في الوقت الذي كان الجميع قد صمت عن المجزرة التي صُنّفت «إبادة جماعية».

كانت التجربة الروائية مغرية بدأت أكثر شبها برحلة أقود فيها حافلة وأجمع ركابها ليشاركوا في نسجها والمساهمة في أحداثها. لا أنكرُ أنّني أفتقد الخبرة في العمل الأول وكنت أراهن على لغتي في إنقاذ العمل.

كانت المعضلة الأساسية أنّني لا أعرفُ شيئاً عن العراق. لم أزر العراق في حياتي ولا أعرف شيئاً عن الشمال العراقي ولكن التجربة كانت أكثر إغراءً. ليكن كل شيء خيالاً ليس إلَا. هذه روايتي الأولى وتمنحني فرصة أنْ أجرّبَ خيالي فيها وتغفرَ لي زلتي كونها عملي الأول.

كانت الوسيلة الوحيدة لخلق الأجواء الروائية بجمع أكبر عدد من المعلومات عن الشمال العراقي، ولم توفرْ لي المكتبة هذا الكم الكبير من المعلومات عن سيرة الأكراد وحياتهم. أسعفتني كتابات سليم بركات الروائي الكردي السوري عن أكراد القامشلي وتوقعت أنّ الحياة الاجتماعية هناك في شمال العراق لا تختلفُ كثيراً عن أكراد سوريا. اعتمدت كثيراً على الخرائط لأعرفَ المسافات بين المدن في محاولة لضبط الزمن. لكن تطوّر الشخصيات واستقلالها لتؤدي أدوارها المرسومة لها كانت كافية للابتعاد عن تفاصيل تاريخية أو سياسية. كان الخيال هو الطريق الأفضل لكتابة روائية موازية للواقع وليس نقلاً مباشراً له.

وكانت «عاشقة الثلج» التي بدأتها بحكاية صغيرة وأنهيتها بثلاثمئة صفحة وشعور بالنجاح الداخلي. بدأتها في فبراير 1991 وأنهيتها في أغسطس 1992. أردتها ألّا تكون انفعالاً مباشراً لما أصابنا فتفشل كعمل أدبي خصوصا وأنا أتابع فشل الزملاء حينها في كتاباتهم المباشرة عن الغزو.

كنت أريد أنْ أكتبَ الجزء الثاني منها ولكنني قرّرت توزيعه على ثلاثية «الجهراء» التي أنهيت جزأين منها وأكتب الثالث حالياً.

فروسية في مهبّ الريح

هشام ناجح *

الأحـلام كالفقاعـات حيـن تتناثـر فـي الأفـق، وتعكـس وجهتهـا عوامل أخـرى كاسـتجابات متعـدّدة الألـوان والتصـوّرات. يتأكّـد لـك وأنـت ترنـو إلـى حـدّ السـماء، أو حـدّ بعـض الفقاعـات التـي واصلـت هذيانهـا؛ أنّ الحلـم أقـوى مـن الخبـرة، كمـا قـال باشـلار، فأغلـب الأحـلام يرتبـط بالانغمـارات والسـفريات الداخليـة المرتّبـة فـي حيـز اللاوعـي، لهـذا تهدّدنـا عندمـا نخلـد إلـى نـوم عميـق، مرجرجـة الخزينـة اللبيديـة، لتلقـي بمـا تبقـى مـن الفقاعـات فـي ابتـزاز أسـود، سـيعرف النـور، وينجلـي فـي عمـلٍ روائـيّ، لا تعـرف كيـف يمكنـك أنْ تسـعفَه بالأسـماء التـي تليـق بـه قـد نسـميها أحيانـاً؛ أخطـاء البدايـات، أو سـحر البدايـات، أو نشـوة الانتمـاء إلـى نـادي الكبـار.

---

* كاتـب مغربـي مقيـم بفرنسـا. صـدر لـه: «المدينـة التـي...» (روايـة)، «أبديـة الـروح» (مسـرحية)، «وشـم فـي السـعير» (مجموعـة قصصيـة)، «دوار الكيّـة» (روايـة)، «حديـث الوجـوه المائلـة» (روايـة).

إنّها عملية ذهنية مبهمة، تطبعها تصوّرات نفسية تحكمها الدوافع أحياناً، ما دمت متعجّلاً لأنْ تكتبَ كما لو كنت تعتقد أنّ الحياة لنْ تُمهلكَ إلى الغد، حتى يشتدّ عودك السرديّ، وتسع عضلاتك ذروة التحمّل حالماً تهيج عواصف الأقلام الحمراء.

آهٍ، من الحروب السرديّة، إنّها أشدّ فتكاً ورهبة وتطلّعاً في الوقت نفسه إلى رصد خطواتك وطريقة حمل سلاحك. إنّه مظهرٌ يدعو للسخرية أحياناً في فروسية دون كيخوتة، وأنت تهدّد الريح.

كانت الحرب على أشدّها في شعاب نفسي حين أصدرت عمليّ الروائيّ الأوّل. وهو بالمناسبة إصداري الأوّل بالرغم من أنّني كنت قد كتبت عدّة قصص سلفاً. كان عملاً قصيراً لا يتعدّى 80 صفحة كتبته في 22 يوماً بمقهى ليليّ يدعى «شهرزاد»، يختص في لعب الورق والمشاجرات والكلمات البذيئة التي تحرّك بواعث الاستحضار والخيال وتزعزع استبطانات الذاكرة.

الكتابة ظاهرة اجتماعية في الحقيقة لا تحتاج إلى العزلة والانسجامات الجاهزة؛ إنّ الشخوص تتحرّك أمامك كأنك تقيم «كاستينغ» من أجل فرز شخوصك المنغمرة مع حدّة التطلّعات والإسقاطات.

كانت تحدوني الرغبة في إعادة ترميم خراب روح التاريخ لشعب حسب ما لا يرغب فيه، بل حسب ما يقبله العقل، فجاءت الرواية مسرودة بين الراوي الذي يظهر ويختفي، وهو راوٍ واقعي يؤثث الأحداث، ويوجه السارد على أساس أنّه يمتلك من التجربة ما يسمح له بالوقوف عن كثبٍ عند هذا المنحى، فتظهر خصوصيات السارد النفسية والاجتماعية في التكيف مع أجواء الدار البيضاء في

بداية الحرب العالمية الثانية، وقتها ألقتْ به إلى أتون هذه المدينة الغول رفقة والدته وأخيه فاختترت عنوان « المدينة التي...»، حيث يقول السارد في مستهل الرواية:

«كان عاماً غير عاديّ كما حدثني الراوي، والعهدة عليه طبعاً، يبدو أنّني أشاركه مجموعة من الأحداث. صادفته في العديد من المرات يلتهم خبزه الجاف الممزوج بطعم تلك الأيام العجاف التي يشيب لها الولدان».

حدث هذا في بلدتي بعد أن أشعلت الحرب الكونية الثانية نيرانها، وأرغمتنا المجاعة عام «الزوين» سنة 1939 على الرحيل إلى مدينة الدار البيضاء من أجل ملء أحشاء الكرش الملعون الذي عاف جذور «يرني»، وملّ انتظار طبخه ليلة بأكملها، فبعد وفاة والدي لم يعدْ بمقدورنا توفير لقمة العيش، رغم أنّ والدتي «يزة بنت الفاطمي» كانت لها دراية كاملة بغزل الصوف، يدها تطاوعها طيلة النهار غير أن الأسواق بارت. هكذا كنّا مجبرين على الزحف صوب المدينة التي ستشبعنا حتى نُصابَ بالتخمة.

كانت فرحتنا عارمةً، إذ سنكتشف عالماً جديداً أكبر من هذا الخلاء الموحش الجائع. يغمرنا إحساس رهيب، يختلط فيه الترجّي بالخيبة وتزداد دقّات قلبي كلّما سمعت من والدتي:

« أوشكنا على الوصول. كونوا رجالاً. الدار البيضاء لا ترغب إلّا في الرّجال».

الراوي يخالفني الرأي، ويسند إليّ بعنعنته موضحاً الظروف التي حفت هذه الرحلة.

كانـت رغبـة الكاتـب الملحـاح وقتهـا أنْ يرافـقَ الإنسـان آنـذاك بتصوّراتـه النفسـية والاجتماعيـة فـي مرحلـة يصعـب فيهـا الحديـث عـن هـذه الهواجس على أساس أنّ الـكلّ مشغولٌ بالفكـرة؛ الوطـن، ويوميـات المقاومـة، ورصـد عـدم الوضـوح فـي تبنّـي قضيـة أكبـر، تلـك التـي تلتهـم الأشـياء الصغـرى، فارتـأى الكاتـب الالتفـات إلـى الإنسـان الملتصـق بـالأرض، معبّـراً عـن تصوّراتـه الخاليـة مـن المسـاحيق والرتوشـات. التاريـخ الـذي يشـكّل ذروة الحيـاة، ويبسـط حيّـز الأنوجـاد، ويسـمو بالأحـزان البسـيطة والأرجـاء المبطنـة، تسـعفها لغـة تشـوبها نغمـة سـاخطة:

«أسـمع نقـرات خفيفـة علـى البـاب كأنهـا تأتينـي مـن زمـن بعيـد. فـي غمـرة النشـوة أتحامـل علـى نفسـي وأفتـح البـاب. أجدهـا صديقـة حليمـة، إنهـا «يامنـة المسـكينية»، لهـا نفـس الـدروب فـي عالـم القحـوب كمبتدئـات فـي بوردبـل «بوسـبير»، حيـث البغـاء منظـم بشـكل جيـد، وتخضـع جميـع البغايـا للفحـص الطبّـي الـدوريّ».

«الـراوي يعلـم الاسـم الحقيقـيّ لهـذا الفرنسـيّ الـذي يشـرف علـى «القـوادة». اقتـرن اسـمه باسـم هـذا الحـي الـذي يجمـع البغايـا، يقفـن أمـام البيـوت متبرّجـات معلنـات قحوبهـن بكلماتهـنّ التـي توقـد حمّـى الشـهوة، إنّـه «بـروس بييـر» يـزاوج بيـن العمـل كقـوّاد ومخبـر يقتنـص أخبـار الوطنيّيـن مـن خـلال أولئـك الملتحقيـن الجـدد بالحركـة الوطنية».

«لـم أعـرفْ كيـف كان الـراوي يحصـل علـى هـذه المعلومـات فـي غايـة السـرّية؟»

سـتتوالى الأحـداث، وسـيلتقي السـارد بالفرنسـية سـتيفاني، وسـتتغير حياتـه تمامـاً، ويرحـل صـوب الضفـة الأخـرى، وتعـرف الروايـة منحـى

آخـر، وسيسـتقلّ المغـرب. لكـنْ، سـريعاً مـا سـتذبل زهـرة الاسـتقلال فـي نظـر مـن طالبـوا بـه بعـد، فيقـول الـراوي:

«رحل استعمار صاحب القميص وحلّ محلّه استعمار الجلباب».

وانسـاق السـارد لحيـوات أخـرى؛ أحيانـاً بيـن صدمـة الحداثـة، والرغبة فـي الاندمـاج فـي المجتمـع الفرنسـي بـكلّ تلوّيناتـه، فرفـض فـي الأخيـر أنْ يعـودَ إلـى الوطـن إلّا فـي تابـوت مشـمّع بعدمـا فقـد كلّ أهلـه، وانسـاق الوطـن لسـفك أحـلام الـكلّ مسـتحضراً قـول الـراوي:

«أتذكر الراوي وهو يفضي إليّ بعنعنته فيقول:

«بلاد الذلّ تهجر».

ويقرأ لي أبياتاً يحفظها عن ظهر قلب:

سأكون حيثما عشت حياتي

متوازن الذات أمام الطائرات

لأواجهَ الليل والعواصف والجوع والسخف

والحوادث والإخفاقات

مثلما تفعل الأشجار والحيوانات».

وحتـى نحيـطَ أكثـر بالعمـل الروائـيّ الأوّل، ونضمـن لأنفسـنا مبـرّرات هذياننـا وخرافاتنـا وسـذاجتنا السـردية، سـنغلفها حتمـاً بـرأي الروائـيّ الكبيـر ماريـو فرغـاس يوسـا:

«لا وجـود لروائيّيـن مبكّريـن فجميـع الروائيّيـن الكبـار الرائعيـن، كانـوا فـي أوّل أمرهـم مخربشـين، وراحـت موهبتهـم تتشـكّل اسـتناداً إلـى المثابـرة والاقتنـاع».

لا ولاء إلاّ للحقيقة..

هيفاء بيطار *

كتبتُ روايتي الأولى «يوميات مطلقة» عام 1994م، وهي عبارة عن سيرة ذاتية ناقصة، ومجلّلة بالخوف الاجتماعيّ والدينيّ، لكنها كانت أشبه بصرخة احتجاج ضد ظلم القوانين المسيحية التي تحكم بالهجر لسنوات بين الزوج وزوجته حتى يتمَ الطلاق.

لقد رفعتُ دعوى الطلاق بعمر 27 سنة وتطلقتُ بعمر 34! لم أعشْ مع زوجي سوى سنة، حكمت عليّ المحاكم الروحية المسيحية بالهجر سبع سنوات عشتها كأنني مُعلقة في فراغ أي لستُ متزوجةً ولا مُطلقةً. وطبعاً كانت حضانة طفلتي لي.

* روائية وطبيبة سوريّة من مواليد مدينة اللاذقية 1960، نشرت العديد من الكتب القصصية والروائية، وتمّ تحويل أعمال لها إلى السينما، من أعمالها الروائيّة: «يوميات مطلّقة» 1994، «قبو العباسيين»1995، «أفراح صغير، أفراح أخيرة» 1996، «نسر بجناح وحيد» 1998م، «امرأة من طابقين» 1999م، «أيقونة بلا وجه» 2000، «امرأة من هذا العصر» 2006، «فضاء كالقفص» 2007، «أبواب مواربة» 2007، «هوى» 2007، «امرأة في الخمسين» 2014م.

عشتُ هذه السنوات السبع بمشاعرَ قويةٍ من الإحساس بالغضب وانتهاك الكرامة والظلم، خاصةً أنّ المجتمعَ الذي أعيشُ فيه - مدينه اللاذقية - مجتمعٌ محافظ وعقليته «متخلفة»، إذ ينظرون إلى المطلّقة كما لو أنّها مُعاقة أو فاشلة، وسيئة الحظ، ولقمة سائغة لمن يريد اللهو والتسلية.

كنت في بداية عملي كطبيبة اختصاصية في طبّ العيون وأملك طموحاً أنْ أكونَ طبيبةً ناجحةً، لكنْ لم تكنْ لديّ أيّة فكرة أنّني سأكون كاتبةً، إذ إنّ دراسة الطبّ والاختصاص استنزفا جهدي ووقتي، لكنّني وجدتُ نفسي ذات يومٍ وأنا في السنة الرابعة من الهجر «لست معلقةً ولا مطلقةً»، وابنتي في سنتها الرابعة، أستيقظ مع إحساسٍ فظيعٍ بالاختناق، ولم تكنْ لديّ أيّة فكرة ماذا سأفعل بيومي.

كان يوماً ربيعياً في شهر نيسان، وجدتني بعفوية أحمل أحد دفاتر ابنتي المدرسية وأذهب إلى شاليه على البحر يملكه والدي. طبعاً في ذلك الزمن لم يكنْ هناك موبايل وإنترنت ولا وسائط اتصال حديثة عندنا، وجلست من الساعة التاسعة صباحاً حتى الخامسة بعد الظهر أتدفقُ على الورق، كنت أكتبُ كمَن ينهلُ من بحر، كما لو أنّ ما أكتبه مسجّل كلّه في عقلي، وعملية الكتابة تُشبه تحميض الصورة.

كان كلُّ موقفٍ مُختزناً في عقلي، وكلّ لقطةٍ كذلك، وما الكتابة سوى تظهير للوحة. كنت أشعر بآلام جميع النساء وأنا أكتب، وبظلم القوانين، وبالنظرة الدونية للمرأة، خاصة المطلقة، وكنت مصممةً أنْ أقاومَ هذا الظلم الفظيع لكن دون أنْ أعرفَ كيف؟ فالمجتمع حولي يثرثر، وينشر إشاعاتٍ، ويتسلى بمشاكلَ وآلام الناس، وكانت هذه الثرثرة تؤلمني جداً إذ لم تكنْ لديّ خبرةٌ حياتيَة كافية لأسخرَ من التافهين.

لم أكنْ أعرفُ أنّ ما كتبته على دفتر ابنتي هو روايتي الأولى «يوميات مطلّقة» التي كتبتها في يومٍ واحدٍ، حتى أنّ الكثيرين لا يصدقون أنّني كتبتها في يوم، وكنت قد وضعت لها عنواناً أولياً «أوراق على الجبين». أي تخيلت أنّني جمعتُ سنوات عمري في علبة تحوي قصاصات ورق، وكلّ ورقة تروي ما حصل معي خلال عام، لكنني وحسب رأي الناشر «حسين العودات»؛ صاحب دار «الأهالي» الذي نصحني أن يكونَ العنوان «يوميات مطلّقة».

كنت قد تحديت نفسي بجرأة لم أتوقعْ أنّني أملكُها وبشجاعة لا أعرفُ أينَ كانت مختبئةً في داخلي، لقد انتقدتُ بحريةٍ كاملةٍ ظلم المحاكم الروحيّة المسيحيّة التي تحكم بالهَجر لسنواتٍ بين الزوجين، وحكيت فصلاً أثار الدنيا في اللاذقية ولم يقعدْها عن لقاءاتي مع المطران «صاحب الغبطة» الذي كان يعارض الطلاق مستنداً لعبارة في الإنجيل: «ما جمعه الله لا يفرّقه إنسان». وكان يسألني ما الذي ينقصك، مهنتك ممتازة كطبيبة عيون وابنتك معك!

كم كان يخطر ببالي أنْ أردَ عليه بطريقة مستفزة ووقحة عمّا ينقصني، بطريقة تفضح ساديّته. كنت ألاحظ أنّ رجال الدّين يتعاملون بساديّة وتلذّذ مع مصائب النساء، ولكنّ المشكلة التي آلمتني أكثر هي تلك القطيعة التي حلّت بيني وبين أبي؛ أستاذ اللغة العربية الذي كان أوّل من نبّهني أنّني لا أملكُ موهبة الكتابة. لقد رفض تماماً نشر روايتي «يوميات مطلّقة». فمن الصعب على رجلٍ وأبٍ متصالح مع المجتمع وعلاقته جيّدة مع المؤسسة الدينية المسيحيّة أنْ تكونَ لديه ابنةٌ متمردة.

عشت صراعاً قاسياً بين الإذعان لرأي أبي وعدم نشر الرواية، وبين نشرها، لكنّني قررت أخيراً أنّ شعاري في الحياة سيكون: «لا

ولاء إلّا للحقيقـة». وبـأنّ الكتابـة إنْ لـم تكـنْ عمـلاً ثوريـاً وهادفـاً لتطويـر المجتمـع ونشـر غسـيله الوسـخ فهـي كتابـة ناقصـة.

أذكـر ذلـك اليـوم حيـن كنت فـي البـاص مسـافرةً إلـى دمشـق، وروايتي الأولـى فـي حضنـي، ونظارتـي الشمسـية السـوداء تخفـي دموعـي بأنّنـي عصيـت أوامـر أبـي، لكنّنـي كنـت سـعيدةً إذ كنـت أحقـق ذاتـي، وأضـع حجـر الأسـاس فـي بنـاء شـخصيتي، وقـد تبيّنـتُ طريـق الخـلاص؛ الـذي سـينقذني مـن التفاهـة والتخلـف: الكتابـة.

لقـد نقلتنـي الكتابـة مـن ضفّـة التفاهـة واللامعنـى والثرثـرة إلـى عالـم غنـيّ بالقيـم والعدالـة والرقـي والفـنّ. وكـم كنـت سـعيدةً حيـن تحـدث «صاحـب السـيادة» فـي إحـدى مواعـظ يـوم الأحـد، بـألا تقـرؤوا «يوميات مطلّقـة» لهيفـاء بيطـار. يومهـا أحسسـتُ بالفخـر بـأنّ الكنيسـة نبذتنـي كمـا نبـذت جبـران خليـل جبـران وكزانتزاكـي.

بعـد سـتة أشـهر مـن النجـاح اللافـت للروايـة حيـث إنّ كلَّ النسـاء كـنَّ يُوقفْنـي فـي الطريـق ويَقلْـنَ: «أنـتِ تتحدثيـن عنَّـا لكنّنـا لا نملـكُ جرأتـك»، صالحنـي أبـي وقـرأ فـي عينـيّ مـا قرّرتـه مـدى حياتـي: «لا ولاء إلّا للحقيقــة».

غونتر غراس يضع أطروحات الحرّيّة والرقابة على نار الاختبار

وجدي الأهدل *

أشعلت أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام 2001 شرارة العداء بين العالم الإسلامي والغرب. فجأة تلوث الجو بالضغينة في الولايات المتحدة وأوروبا ضد المسلمين. لذلك تداعى المثقّفون من كلا الضفتين إلى عقد مؤتمرات توضح الحقائق، وتبدّد الأوهام التي ساهم الإعلام في صناعتها عن الإسلام، كديانة تحضّ على العنف والدّمار.

واحدٌ من هذه المؤتمرات عُقد في صنعاء أواخر عام 2002، بترتيب من مركز الدراسات والبحوث الذي يرأسه الشاعر اليمني

---

* روائيّ يمنيّ من مواليد 1973، له في الرواية: «قوارب جبلية» رياض الريس، بيروت 2002 وكانت الطبعة الأولى قد صدرت عن مركز عبادي بصنعاء وتمت مصادرتها. «حمار بين الأغاني» رياض الريس، بيروت، 2004. سلسلة آفاق عربية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2011. «فيلسوف الكرنتينة»، مركز عبادي، صنعاء، 2007. «بلاد بلا سماء»، مركز عبادي، صنعاء، 2008. الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت، 2012.

الكبير د. عبد العزيز المقالح، وأطلق على المؤتمر مسمّى «في البدء كان الحوار» الذي استمرّ لمدة ثمانية أيامٍ متصلة.

الروائيّ الألماني «غونتر غراس» (1927 – 2015)؛ الحائز على جائزة نوبل سنة 1999م، أيّد بشدّة فكرة الحوار بين الأدباء العرب ونظرائهم الأوروبيين الناطقين باللغة الألمانية، ولذا فقد لبّى الدعوة للحضور من دون تردّد، وحلّ ضيفاً على اليمن وبصحبته ثلاثون كاتباً وكاتبة، من ألمانيا والنمسا وسويسرا، بالإضافة إلى صحفيين يمثّلون وسائل الإعلام من تلك الدول. ومن الجانب العربي حضر المؤتمر عدد موازٍ من الأدباء العرب، وفي مقدّمتهم الشاعر أدونيس والشاعر محمود درويش.

وشاء القدر أنْ توضعَ أطروحات المؤتمر حول الحريّة والرقابة على نار الاختبار، ومبادئ المتحاورين عن التسامح على المحك، وذلك عندما استقبل الرئيس اليمني السابق علي عبدالله صالح الجميع في قصره، وأراد أنْ يمنحَ «غونتر غراس» وسام الاستحقاق، فامتنع الأخير عن قبول الوسام حتى يُلبّى مطلبه.. سأله المترجم عن مطلبه، فقال إنّه يطالب بإسقاط القضية المرفوعة من الدولة ضدّ الكاتب اليمنيّ وجدي الأهدل، والسماح له بالعودة إلى بلاده، وضمان حمايته من أيّة ملاحقات قضائية بسبب روايته «قوارب جبلية». فجأة تكهرب الجوُّ الودّيّ، وتوتّرت الأعصاب، نتيجة لتمسّك كلّ طرف بموقفه.

حاول «بعضٌ» ثني «غونتر غراس» عن طلبه، ولكنّه لم يتزحزحْ أو يلنْ، وقال لهم: «لو كنت محامياً وأتقن العربية لدافعت عن هذا الروائيّ من دون شكّ».

طلب الرئيس السابق علي عبدالله صالح منحه مهلة من الوقت للتشاور، ثم خرج تاركاً الجميع في حالة من الاضطراب. وبعد عشر دقائق عاد وأعلن موافقته على عودة الكاتب إلى بلاده مع ضمان حمايته من أيّة ملاحقات قضائية. وهكذا مرّت العاصفة بسلام، وقَبِلَ «غونتر غراس» الوسام الرفيع الذي مُنح له. رغم الغموض الذي أحاط بالدقائق العشر التي قضاها الرئيس السابق علي عبدالله صالح بعيداً عن ضيوفه للتشاور، فإنّ الألمان اعتبروا هذا التصرّف دليلاً على حنكة الرئيس وحكمته.

في عام 2004 تمّ تنظيم الجولة الثانية من الحوار العربيّ - الألمانيّ، تحت مُسمّى «وليستمرّ الحوار». والتقيتُ للمرّة الأولى وجهاً لوجه بالروائيّ «غونتر غراس» الذي أنقذ حياتي من الضياع والتشرّد في المنافي. بعد انتهاء الجلسة الافتتاحية، كان «غونتر غراس» يتمشّى في القاعة لترييض قدميه وهو يدخّن الغليون متجهّماً. دنوتُ منه وبرفقتي الشاعر اليمنيّ أحمد ضيف الله العواضي الذي يتحدّث الإنجليزية بطلاقة. عندما عرّفته بنفسي احتضنني بحرارة صادقة كصديقٍ قديم، وبدا عليه السرور والمرح وكأنّ روحه خرجت من قفص، وتبادلت معه حواراً قصيراً:

- شكراً لك أيها العظيم على ما قدّمته من أجلي.

- «ضحك» أنا حينما أذهب إلى أيّ مكانٍ في العالم أهتمّ دائماً بالدفاع عن الناس المظلومين، لذا كان من الطبيعيّ أنْ أهتمَّ بالدفاع عنكَ، لقد أراد الرئيس أنَ يقلّدَني وساماً، ولكنّني فاجأته ورفضتُ قَبول الوسام حتّى يأذنَ بعودتك ويضمنَ حمايتك.

- الموقف الملتزم بقضية الحريّة الذي اتّخذته من أجل الكفّ عن ملاحقتي وضمان عودتي إلى بلدي آمناً علّمني درساً مهماً.

– لا تنعزل عن الاهتمام بقضايا الناس.. أتمنّى أنْ تنشطَ في هذا الجانب.

– نعم.

– أنا حينما كنتُ في مثل سنّك، أي في الثلاثينات، أصبحتُ أديباً مشهوراً، ولكنّني شعرتُ بالضجر والملل من الشهرة، ولم تفدْني من ناحية الكتابة، ولم تساعدْني على مزيدٍ من الإبداع، ولكنّني سخّرتُ الشهرة لمساندة المضطهدين أينما وجدوا.

ربما لاحظ الروائي «غونتر غراس» بعينه الثاقبة وخبرته العريضة في خبايا النفوس البشرية أن قدراً من الغرور قد داخل الأديب الشاب الغُرّ الذي يقف أمامه. كان الرجل بحكمته الراسخة ومن خلال تجربته الشخصية العميقة يحاول إرشاد شابٍ من دول العالم الثالث يحاول كتابة الأدب إلى الطريق الصحيح الّذي ينبغي على المبدع الصادق المخلص للمبادئ الأخلاقية السامية أنْ يسلكَه.

تابع قائلاً:

– لا أريدُك أنْ تعتقدَ أنّ الشهرة ستفيدك في التألّق على مستوى الكتابة، بل هي ستحاصرك وتقيّدك، وكلّ ما هنالك أنّ عليك استغلال هذه الشهرة في خدمة المغلوبين على أمرهم.

– رسالتك وصلت، سوف أُسخّرُ قلمي للكتابة عن الضعفاء والمظلومين.

– ابتسم «غونتر غراس» راضياً. ثم غيّر فجأة اتجاه الحوار وسألني:

– كيف هي أوضاعك الآن؟

– وضعي جيّد، ليست هناك أيّة مضايقات تذكر.

– أين تقيم؟

– أنا مقيم في صنعاء.

– هل أنت تعمل؟

– أعمل موظفاً في دار الكتب.

وامتدّ الحوار إلى أن تمّت دعوتنا عبر الميكروفون للعودة إلى أماكننا لاستئناف الجلسات، أردتُ أن أشكره مرة أخرى قبل أنْ نفترقَ فقلت: «شكراً لك أيها الكاتب الشجاع». قال بتواضع: «أنا لست شجاعاً.. وما قمت به هو واجبي». وذهب وهو يلوح لنا بيده.

في اللقاء الذي جمع «غونتر غراس» بالرئيس اليمني حينها، قال الأخير إن مؤلف رواية «قوارب جبلية» مطلوب للمحاكمة لأنه كتب أموراً تنتهك العادات والتقاليد. قيل إنّ «غونتر غراس» غضب وقال للرئيس إنّ هذا الكلام يؤذيه شخصياً، لأنّه سبق واتهم بهذه التهمة الظالمة قبل حوالي خمسين عاماً في ألمانيا، وتعرّض للمحاكمة والتحقيق معه.

في المرتين اللتين حضر فيهما «غونتر غراس» إلى صنعاء، لمحاورة أنداده من الأدباء العرب، ظلّ يؤكّد على أنّ مهمة الأديب في الحياة العامة هي أن يقول الحقيقة، مهما كان الثمن غالياً والخطر عالياً. وقال «إن الأدب مهنة شديدة الخطورة، وعلى من لا يستطيع قول كلمة الحقّ أنْ يختارَ مهنة أخرى، فليعملْ حلاقاً مثلاً»!

ونعلم اليوم أنّ «غونتر غراس» هو واحد من قلّة من كبار كتّاب الغرب الذين أدانوا إسرائيل علناً في مناسباتٍ عديدة. ولقد تجرّأ على قول الحق، غير هيّاب من سطوة الإعلام الموالي لإسرائيل، ونشر في عام 2012 قصيدته الشهيرة «ما ينبغي أنْ يُقال» التي قال فيها إنّ إسرائيل تمثّل تهديداً للسلام العالمي، فجلبت عليه هجوماً شرساً من المسؤولين الإسرائيليين والموالين لهم في الولايات المتحدة وأوروبا. وهم الذين انقضوا عليه، مطالبين بسحب جائزة نوبل منه، عندما اعترف في مذكراته بأنّه كان في شبابه الغض جندياً في الوحدة الوقائية المكلفة بحماية هتلر «s.s».

في حضرته لم أشعرْ مطلقاً بذاك الشعور الذي ينتاب المغمورين في حضرة المشاهير، ولم أحسّ للحظة بأنّني أدنى منه، أو أنّه توجد فوارق بيننا - مع أنّ هذه الفوارق فلكيّة في واقع الحال- ولقد أذاب بلطفه وطيبته غير المفتعلة الفوارق جميعها، واستأنستْ نفسي بحديثه الصريح التلقائي، حيث يقول مباشرة ما يجول بخاطره غيرَ مبالٍ بأيّة حساباتٍ سخيفةٍ تتعلقُ بمكانته أو بمكانة الآخر. إنّه ببساطة وعفويّة يُلغي الحواجز، حواجز السّن واللغة والثقافة والتراتبية الأدبية -إذا جاز التعبير- ويغمرك بمشاعره الدافئة، ويأخذ راحته في الضحك والمزاح دون تحفظ.. إنّه إنسانٌ لم تنجحْ الحضارة المعاصرة في تحويله إلى آلةٍ باردةِ المشاعر.

اليوم وبعد مرور سنواتٍ طويلةٍ على صدور روايتي الأولى «قوارب جبلية» أدرك أنّني تجاوزتها فنّياً، ولكنّني مدين لها بالحدث الأدبيّ الأهمّ في حياتي، ألا وهو أنْ يتقاطعَ قدَري مع قدَر واحدٍ من أعظم كتّاب الرواية في عصرنا.

حكاية امرأة من ريح ونار

وداد طه *

مسكونة أنا كغيري ممّن طرقوا بقلوبهم باب الأدب، بهواجس عن الحياة والوطن والذّات، ولا إجابات يقينيّة لديّ. كتبت «لَيْمونتان» كنوع من البوح، أو تحرير الذّات أو الشفاء غير المقصود والواعي للروح، لم أكتبْها لأنشرَ، ولم أكنْ قد فكّرت فعليّاً وجديّاً في خوض مجال الكتابة الاحترافيّ، قبل أنْ أسمعَ بمبادرة من مؤسّسة القطّان، لدعم مشاريع فنيّة للشّباب الفلسطينيّ، وأيضاً بالمصادفة، ولا أعرفُ كيف أُرسلَ إليّ طلب المنحة، فأرسلتُ من نصّ الرّواية غيرِ المُكتمل، وبصورته الأولى إلى المسؤولين، فجاءت موافقة على دعم نشر عملي الأدبيّ. بالطّبع فرحت، وحرّرته من شوائب البدايات المرتبكة، لكنّني تركت فيه إصراري على أنْ يشبهَ النّصّ مبنىً معنى اسمه «لَيْمونتان».

---

* كاتبة فلسطينية مقيمة في لبنان. حاصلة على شهادة ماجستير في اللغة العربية وتعدّ أطروحة دكتوراه فيها من الجامعة اللبنانية. تعمل في سلك التعليم. لها ثلاثة مؤلفات منشورة: روايتان عن دار الفارابي هما «وأخون نفسي» 2016 و«حرير مريم» 2017. أما روايتها الأولى «لَيْمونتان» فصدرت عن الأهلية عمان.

كلّ ما في روايتي الأولى «لَيْمونتان» يشبهها، من غلافها إلى انزلاق عنوانها، إلى تلك العناوين الفرعية التي اعتمدتها لتسمية هذيان وتداعيات خيال البطلة، في يومياتها المرهقة والعادية والمصيريّة، إلى اللّغة والصّور والأسلوب.

تحكي الرّواية قصّة نور، شابّة فلسطينيّة بسيطة تحيا في عالمٍ كبير، لها أحلامها، وأمامها واقع يقوّضها. تبدأ الرّواية بسماع نور خبر وفاتها على الرّاديو. وتسير الأحداث متلاحقة بعد ذلك، في حبكة من يوميّات البطلة. نور فلسطينيّة لذلك فهي تُغتصب وترفض وتستسلم وتسعى وتضيع من ذاتها في بحثها عن مكانٍ لها في هذا العالم المتفجّر.

في عرف الكتابة الرّوائيّة المسوّدة الأولى هي أنت تكتب لنفسك، وفي «لَيْمونتان» هذا تحديداً ما فعلته، لكنّني شاركت مسوّدتي مع القرّاء، لأكثر من سبب؛ أوّلها أنّني لا أكتبُ أكثر من مرّة الرّواية نفسها، لا، لستُ ذلك النّوع من الرّوائيين، فحين أنهي سطري الأخير، أرسلُ الرّواية إلى صديقٍ روائيّ، وحين يبدي موافقته، وهذا يحصل عادة من القراءة الأولى، أرسلُها بدوري إلى دار النّشر. ثمّ لا أعودُ أحبّ ما كتبت، وحين يرسل إليّ أحد القراء فقرةً أو سطراً نالت إعجابه، أكون قد نسيت أنّني كتبتها، بحقّ أعود وأكتشف ذاتي وكتاباتي من خلال المقابلات والقرّاء. لا أعرفُ لِمَ يحصل ذلك، ولكن من الممكن أنّني أهتمّ بالحبكة ورسم الشّخصيّات، وأندفع في كتابتي بوعي «لا واعٍ» لما سأكتبه في السّطر التّالي، رغم تخطيطي المسبق للسّرد وعوالم الحكاية والأبطال.

روايتي هي انفعالي البِكر بالحياة، هي ثورتي على واقع فلسطينيّ محاصر فيه شعب بأسره، في مجتمع لبنانيّ يعاني الطائفيّة حتّى

في العلاقات العاطفيّة. هي ثورة على العادات الفلسطينيّة والرؤى السّاذجة للذّات، وحتميّة اللّجوء إلى وكالة الأونروا كي يحيا الفلسطينيّ. هي تداعي التّفاصيل اليوميّة المرهقة لفتاة بحجم قلبها، رماها مصيرها في الحياة فصارت هي الحياة، بكلّ ما تحمل الحياة من تناقضات وتشكّلات ومحاولات وموت وولادة.

في «لَيْمونتان» كتبت شعوري كما هو، ولم أحاولْ أنْ أجمّلَه أو أفلسفه، ولم أملكْ حِنكة الرّوائيين والأدباء الّذين يكتبون عن مشاعرهم المفكّر بها وتأمّلاتهم عنها، أنا فقط سردت يوميّات في حَبكة دراميّة لملحمة صغيرة لفتاة فلسطينية. ولا أخفي شعوري بالفخر لأنّني فعلت ذلك، فمن يملك شجاعة تعرية ذاته أمام ذاته أوّلاً والمجتمع ثانياً، ومن يملك شجاعة التّفكير عكس المفكّر به والمتداول، يشكّل مادّة جيّدة لرواية، لأنّ البطل الرّوائي هو بطل يحيا صراعاته مع محيطه وعوالمه الدّاخليّة معاً، وهذا ما كانت تحياه نور بطلتي في «لَيْمونتان».

لم أفكرْ في النّشر قبل «لَيْمونتان»، مع أنّ لي محاولاتٍ منشورةٍ في القصّة القصيرة في جريدتي السّفير والنهار اللبنانيتين، لكنّ وعيي لهويّتي الأدبيّة بلْ والشّخصيّة أتى متأخراً، ولا أعرف لِمَ يلازمْني الشّعور بضرورة الانسحاب كلّما جذّفت في المستقبل. «لَيْمونتان»، محاولة تُشبه اسمها وتُشبهني عميقاً، لا أعي نقصاناً ولا اكتمالاً ولا أعرفُ الحدّ الفاصل بين غيبوبة الحياة وصحو الإرادة، وأنا أسير في صوب مصيري حاملة كلّ التناقضات البشريّة الهائلة.

من هنا يمكنني القول إنّ صعوبات النّشر عندي هي صعوبات إيجاد البطل الذي بإمكانه أنْ يجسّدَ الفكرة المراد منها العمل. فأيّ شخصيّة تستطيع أنْ تجسّدَ في كينونتها مجتمعاً بأسره؟ هل كنت

موفّقـةً فـي رسـم شـخصيّة نـور؟ لا أعـرفُ، لكـنّ نـور بطلـة بكونهـا قبلت هـذا التّحـدي والجنـون ورمـتْ بنفسـها فـي أتـون القـارئ بعـد أنْ خرجتْ مـن بطـن حـوت أيّامهـا الرّتيبـة وقصصهـا الصّغيـرة. وهـل مـن الممكـن تصحيـح واقـع مـن خـلال حكايـة لفتـاة سـاذجة؟ بالطّبـع لا، لكنّنـي قلـتُ كلمتـي الرّافضـة لواقـع الفلسـطينيّ والمحاولـة تغييـره، وإنْ بحكايـة ترمـز إلـى ضَياعـه ثـمّ اسـتفاقته مـن غيبوبـة الحيـاة حـرّاً جميـلاً وأكثـر قـدرة علـى التغييـر.

السّـؤال الّـذي يراودنـي هـو: إن لـم أنـلْ تلـك المنحـة مـن مؤسّسـة تُعنـى بالشّـباب هـل يـا تـرى كنـت لأنشـرَ يومـاً؟ هـل كنـت سـأقدُم علـى هـذه الخطـوة الّتـي تسـتنزفُ العمـر والأحـلام والمـال معـاً؟ لا أدري، ولكـنّ انـزلاقَ أيّامـي منّـي بيـن التّعليـم والإذاعـة لـم يأخـذْ معـه رغبتـي القاهِـرة فـي الكتابـة، رغبتـي الجامِحـة فـي أنْ أكتـبَ وأطيلَ الـكلام، فحتّـى حيـن كنـتُ أحضّـر موضوعـاً للبـثّ عبـر الرّاديـو، كنـتُ أكتـب مقدّمـات مطوّلـة، وكان المخـرج يحـذف مـا يـراه أدبـاً لا يعنـي المسـتمعين. لعلّـي لـم أكـنْ أفهـمُ وقتهـا أنّنـي أحـاول أنْ أكتـبَ وأنّنـي أسـتفيض ويندلـق منّـي قلبـي وأنـا أكتـب. والغريـب أنّ بيـن أولـى محـاولات النّشـر فـي جريـدة السّـفير، وهـي قصّـة بعنـوان «بحـث» وبيـن «لَيْمونتـان» سـبعة عشـر عامـاً، كنـت قـد غبـت فيهـا عـن ذاتـي، كتبـتُ الشّـعر ولـم أجـدْ قيمـة لـي فيـه، حتّـى أنّنـي ألاحـظ أنّ معظـم مـا كتبتـه مـن شـعر كان حكايـاتٍ، أو قصصـاً فـي قالـبٍ شـعريّ.

السّـعادة العميقـة عرفتهـا ككاتبـة، حيـن أرسـل لـي الأصدقـاء مـن فلسـطين صـوراً لـ«لَيْمونتـان» مـن مكتبـة فـي مدينـة النّاصـرة، وحيـن علمـت أنّهـم يوصـون إحـدى المكتبـات بجلـب الرّوايتيـن الأخريـن، كانـت سـعادتي لا توصـف وقتهـا، فذلـك تخـطٍّ لـكلّ معوّقـات النّشـر

الّتي نواجهها ككتاب أوّلاً، وهو تواجد وحضور في فلسطين أخيراً وأبداً. ثمّ اهتديت ولم أندمْ، وعدت وكتبت روايتين أخريين بعد «لَيْمونتان»، وفي رأسي عشرات الأفكار لروايات قادمة مصرّة أنا أنْ أكتبَها قبلَ أنْ أموتَ.

الرّواية تجعلك تتقصّى أعمق ما فيك، وما في غيرك، مثقل أنت بهموم الإنسانيّة وتريد أنْ تُذرّيَها مع الرّيح. الرّواية تجعلك صوت ثقافتك وصداه الغريب في الوقت عينه، تحرّرك، خاصّة كامرأة في مجتمع عربيّ وفلسطيني مركّب وكثير التعقيد، مجتمع يرفض أن تقلب الرؤية للأشياء، أنْ تتنفّسَ هواءَك الخاصّ، وتحتلَّ مساحتك الخاصّة من دون أنْ يحاولَ مساسَها برؤاه أو يحتلَّها بعظم مؤخّرته الرّاقدة.

امرأة من ريحٍ ونارٍ أنا، رافضة ومريدة وساذجة وغبيّة أحياناً، لكنّني أحبّ رؤايَ، وأريد أنْ أحلُمَ، وعندما سُئلت في أولى مقابلاتي الصّحفية بعد نشر «لَيْمونتان» عن المستقبل الّذي أخطط له، قلت بعفويّة: إنّني سأنال نوبل للآداب يوماً ما، ليس سعياً وراء جائزة لا أعرف مدى نزاهتها في يومنا، وإنّما تحقيقاً لذاتي المحلّقة، ولأنّني سأكتب تلك القصص الّتي ستغيّر قلباً واحداً ربّما، ولكنها قصص حرّرتني، وقصص ستحكي عن الإنسان.

نبذة عن الكاتب

* **هيثم حسين:** كاتب وروائي سوريّ، من مواليد الحسكة، عامودا 1978م، مقيم في المملكة المتحدة/ إدنبرة. عضو في جمعية المؤلّفين في بريطانيا، وفي نادي القلم الإسكتلنديّ. وفي رابطة الكتاب السوريين. كان مدرّساً للغة العربيّة لسنوات قبل مغادرته لسوريا 2012. يكتب في كبريات الصحف والمنابر العربيّة. مؤسّس ومدير موقع «الرواية نت».

- الأعمال المنشورة: في الرواية:

«آرام سليل الأوجاع المكابرة»، ط1: دار الينابيع، السويد 2006، ط2: دار النهرين، دمشق 2010. «رهائن الخطيئة» ط1: دار التكوين، بيروت - دمشق 2009. ترجمت إلى اللغة التشيكية، وصدرت ترجمتها التشيكية في براغ 2016م. «إبرة الرعب» منشورات ضفاف بيروت، الاختلاف الجزائر «عشبة ضارّة في الفردوس» منشورات مسكيلياني، ميارة، تونس 2017.

- النقد الروائيّ:

«الرواية بين التلغيم والتلغيز»، ط1: دار نون، سوريا 2011. «الرواية والحياة». صدر ككتاب مرفق مع مجلة الرافد الإماراتيّة في شهر مارس 2013م. «الروائيّ يقرع طبول الحرب»، دار ورق، دبي 2014. «الشخصيّة الروائيّة.. مسبار الكشف والانطلاق» دار نون، الإمارات، 2015.

- الترجمة:

«مَن يقتل ممو؟» مجموعة مسرحيّات مترجمة عن الكردية للمؤلّف بشير ملا. دار أماردا، بيروت 2007.